النبي في مكة

(حكمٌ وعبر)

تأليف

أ.د. ياسر أحمد نور

أستاذ التاريخ الإسلامي بجامعتي طيبة والمنصورة



بطاقة فهرسة

مكتبة جزيرة الورد

اســـم الكتاب : النبي ﷺ في مكة (حكم وعبر)

المـــــــؤلف : أ.د. ياسر أحمد نور

رقـــم الإيداع :

الطبعة الأولى ٢٠١٧

مكتبة جزيرة الورد

القاهرة : ٤ ميدان حليم خلف بنك فيصل

ش ٢٦ يوليو من ميدان الأوبرا ت : ٠١٠٠٠٠٤٠٤٦ ـ ٢٧٨٧٧٥٧٤

Tokoboko_5@yahoo.com


بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إلى من هو أحب إليّ من نفسي وأهلي والناس أجمعين
إلى الحبيب المصطفى ﷺ أهدى هذا العمل

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك، وأن محمداً عبده ورسوله.

أما بعد،،

تشكل سيرة النبي محمد ﷺ الركيزة الأساسية لحركة التاريخ العظيم، الذي يعتز به المسلمون على اختلاف لغاتهم وأقطارهم، إنها بحق تاريخ الإسلام الواقعي والفعلي في عصر الرسالة، بل عدها ابن حزم[١] المعجزة الدالة على صدق نبوته، وإن لم يوجد غيرها لكفت.

وثمة خصائص عديدة تفردت بها سيرة النبي ﷺ عن غيرها من السير منها:

أنها سبيل نجاة المرء وسعادته في الدنيا والآخرة، فإذا كانت السعادة في الدارين معلقة بهدي النبي ﷺ، فيجب على كلَ من نصح نفسه، وأحب نجاتها وسعادتها، « أن يعرف من هديه وسيرته وشأنه..» [٢].

تجسد السيرة النبوية التطبيق العملي للإسلام عقيدة وشريعة وأخلاقاً، فجميع ما يتعلق بهذا الشأن من نصوص لا يمكن فهمها إلا على ضوء مجريات سيرته وأفعاله، وقد أدركت عائشة ل هذا المعنى حين وصفت النبي ﷺ بقولها :«**كان خلقه القرآن**»[٣].

سيرة النبي ﷺ صالحة للتأسي لكونها سيرة بشر أكرمه الله بالرسالة، يقول تعالى: ﴿ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ ﴾[٤]. ومن ثم لم تُحَط بشخصه هالة من الخوارق والأساطير التي تخرجه عن الذات البشرية، مثلما فعل النصارى بعيسى ابن مريم عليه السلام حين وصلوا به إلى مرتبة الألوهية.

تمثل سيرة النبي ﷺ كذلك القدوة الشاملة في كافة شؤون الحياة، يقول تعالى: ﴿ لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ﴾ [٥]. ومقصود الأسوة في الآية أن «يقتدى به في جميع أفعاله ويتعزى به في جميع أحواله»(٦).

(١) الفصل في الملل والنحل ٧٣/٢
(٢) ابن قيم: زاد المعاد ٦٩/٢
(٣) أحمد: المسند (٢٤٦٤٥) ٩١/٦. صححه شعيب الأرناؤوط.
(٤) سورة الكهف: آية ١١٠.
(٥) سورة الأحزاب: آية ٢١.
(٦) القرطبي: التفسير ١٥٤/١٤.

كما أنها سيرة منصفة لم تعرض لشخص الرسول ﷺ وفق نظرية الرجل العظيم، التي تجعل منه المحرك الأوحد لأحداثها ولا يُؤبه لغيره بأي دور فيها، وإنما جاءت تأريخاً للنبي الكريم ﷺ ولصحبه الذين آمنوا به ونصروه، إعمالاً لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[1].

لا شك أن جميع ماسبق جعل من هذه السيرة العطرة على رأس أولويات الكتابة التاريخية عند المسلمين، حيث لم تحظ حقبة من التاريخ بالدراسة والبحث بقدر ما حظيت به حقبة السيرة النبوية.

من هنا أشرف عزيزي القارىء بأن أتوجه إليك بكتابي الموسوم بـ«النبي ﷺ في مكة»، ليكون ضمن سبل مطالعتك واطلاعك على هذه السيرة الشريفة في عهدها المكي.

وقد عولت بالأساس على الروايات التي توافرت فيها شروط القبول والصحة الحديثية، مع الإفادة من الروايات التي لا ترقى لهذه الشروط، لتفصيل ما أجملته الأخبار الصحيحة، أو لملء الفراغ الذي تعجز عن ملئه شريطة ألا تتعارض معها.

كما عنيت ببيان الحِكَم المستنبطة من أحداثها، وإبراز جوانب الاعتبار في وقائعها، فضلاً عن تفنيد ما أثير من شبهات وأباطيل حول بعض موضوعاتها.

وأخيراً فإن نصحي لنفسي ثم لك عزيزي القارئ ألا تتعاطى مع مادة هذا الكتاب كونها مجرد معلومات تزيد من حصيلتك المعرفية عن هذه السيرة العطرة، ذلك أنها ما دونت ولا سطرت على مدار هذه القرون، إلا من أجل أن تكون منهج حياة، لذا فاحرص أن تتحول بهذه المادة إلى ثقافة تقوّم بها مسيرة حياتك، وتعينك على الارتقاء بذاتك، فتفوز بخير الدنيا والآخرة.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

المؤلف

أ.د ياسر أحمد نور

المدينة المنورة

غرة رمضان/ ١٤٣٨هـ

(١) سورة الأنفال: آية ٦٢.

١-مصادر السيرة النبوية

تعتمد دراسة السيرة النبوية على مصادر عديدة ومتنوعة، تتباين من حيث قيمتها التاريخية ومناهج كتابتها، إلا أنه في ضوء هذا التنوع يمكن حصرها في المصادر الرئيسة الآتية:

- القرآن الكريم وكتب التفسير.
- كتب الحديث.
- كتب السير والمغازي.
- كتب التاريخ بأنواعها.
- كتب الدلائل والشمائل والخصائص.

القرآن الكريم وكتب التفسير:

استحوذت المادة التاريخية في القرآن الكريم على ثلث آياته؛ فإلى جانب ما اشتملت عليه من تاريخ الأنبياء والأمم الغابرة، اختصت السيرة النبوية بعديد من الآيات التي تناولت حياة النبي ﷺ منذ طفولته مروراً بذكر كثير من الوقائع والغزوات وانتهاء بالإشارة إلى دنو أجله ووفاته.

والمتأمل في الآيات القرآنية، سيلحظ أنها لاتعرض لأحداث السيرة النبوية من خلال نص تاريخي مكتمل التفاصيل

له بداية ونهاية على طريقة كُتّاب التاريخ، بل انتقي من وقائعها، ما يحقق الغاية من وراء عرض القصص القرآني ممثلة في حصول العبرة والعظة ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ ﴾[1].

كما يعد القرآن أهم مصدر وأصح أصل يُستقى منه مادة السيرة النبوية؛فهو كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، لتعهد الله تعالى بحفظه وصيانته من التحريف والتبديل ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾[2].

إذن فالحقيقة التاريخية التي تنطوي عليها آيات القرآن فيما يخص أحداث السيرة النبوية هي حقيقة مطلقة، وليست ظنيّة أو نسبية في ثبوتها، شأن المتعلقة بكثير من أحداث التاريخ عبر مختلف حقبه وفتراته.

(١) سورة يوسف: آية ١١١.
(٢)ياسر أحمد نور: مصادر السيرة النبوية ص١٧، ١٨.

والناظر في موضوعات السيرة النبوية التي عرض لها القرآن الكريم، سيلحظ تناولها المعالم الرئيسة لهذه السيرة، وهذا يعني أن البناء العام للسيرة النبوية حفظ صحيحاً بحفظ القرآن له، وهذه ميزة لم ولن تحقق لأي فترة أخرى في التاريخ الإنساني.

ولهذا نجد القرآن الكريم يخبرنا مثلاً عن ما كان عليه حال النبي ﷺ قبل البعثة من يتم وفقر﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴾[1]. وذكر حاله بعد بدء نزول الوحي عليه حين راعه ما جرى له في غار حراء، ثم ذهابه إلى زوجه خديجة ل وهو يقول لها: «زملوني زملوني»، فأنزل الله تعالى﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾[2]. كما أنزل عليه ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ ﴾ سورة المدثر. ومن أخص ما تضمنه القرآن من موضوعات السيرة حادثث الإفك المفترى على زوجه ﷺ عائشة رضي الله عنها، حيث عرض لها في أكثر من عشر آيات من سورة النور في الآيات من (١١): (٢٦) . كما تحدث القرآن الكريم عن غزوات الرسول ﷺ الرئيسة في عديد من السور والآيات، مثل: غزوة بدر ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[3][4].

ومن ناحية أخرى مثّلت آيات السيرة في القرآن عامل ضبط وتحقيق في كتابتها من الناحية التاريخية، بمعنى أنها نهضت بوصفها أهم معيار نقدي، يعول عليه الباحث في التمييز بين المقبول والمردود من مروياتها الواردة في المصادر التاريخية.

ويتصل بالقرآن الكريم مصدر آخر للسيرة النبوية، وهو كتب التفسير التي تُعنى من خلال الروايات التاريخية بتفصيل المجمل من الآيات المتعلقة بأحداث السيرة وببيان أسباب نزولها، وقد أفضى ذلك إلى تكون مادة ثرية من مرويات السيرة موثقة بالأسانيد.

غير أنه لا ينبغي الوثوق بشكل مطلق في مصداقية هذه المادة؛ لكونها تشمل إلى جانب المرويات الصحيحة والحسنة، كثير من الروايات الضعيفة والموضوعة، ولهذا يقول ابن خلدون «..وقد جمع المتقدمون في ذلك وأوعوا، إلا أن كتبهم ومنقولاتهم تشتمل الغث، والسمين، والمقبول، والمردود..» .

(١) سورة الضحى: آية٦ :٨.
(٢)سورة المزمل: آية١ : ٥.
(٣)سورة آل عمران: آية ١٢٣.
(٤) لمزيد من التفاصيل عن موضوعات السيرة النبوية وطبيعتها التي عرض لها القرآن الكريم. ينظر فاروق حمادة: مصادر السيرة ص٣٩، ٤٩.

ولعل من أبرز مؤلفات التفسير التي تحوي مادة تاريخية عن السيرة النبوية، تفسير ابن جرير الطبري (ت٣١٠هـ) الموسوم بـ«جامع البيان في تفسير القرآن»، ويعد من أجل التفاسير مكانة ومن أعظمها قدراً ، وقد حرص فيه الطبري على جمع الروايات الخاصة بالسيرة وغيرها مسندة إلى مصادرها، وإن لم يعلق عليها بالنقد في أغلب الأحيان. ومنها أيضاً تفسير الحافظ ابن كثير (ت٧٧٤هـ) المسمى«تفسير القرآن العظيم»، وقد وظّف ملكته كمحدّث في نقد ما جمعه من مادة في التفسير،ومن بينها بطبيعة الحال مرويات السيرة النبوية وأخبارها.

كتب الحديث:

حوت كتب الحديث كثيراً من أخبار السيرة النبوية، سواء مما رواه النبي □ عن نفسه، أو ما رواه عنه أصحابه ﷺ، أو ما شهدوه من وقائع لأحداث تخص هذه الفترة. وتجدر الإشارة إلى أن كتب الحديث عندما تعرض لأحدث السيرة لاتقصد التأريخ لها بالمعني الاصطلاحي المتعارف عليه، حيث لم يُتعامل معها بوصفها رواية تاريخية لها بداية ونهاية، تُعرض من خلال سياق متصل من الأحداث يُراعى فيه البعد الزماني والمكاني، بل كان منهج معالجة التعاطي مع مروياتها يقوم على انتقاء ما تحويه أحداثها من أحكام شرعية، وتوظيفها على حسب أبواب الفقه وموضوعاته، ولهذا نجد حدث السيرة يدرس جانباً منه في كتاب الصلاة، وجانب آخر في كتاب الزكاة، وثالث في كتاب الصيام ..وهكذا[١].

وتلي كتب الحديث القرآن الكريم كمصدر للسيرة النبوية على صعيد العناية بتوثيق مادتها وضبطها ونقدها وفق«منهج أصول الحديث». كما أنها متنوعة في مناهج تصنيفها، فضلاً عن تفاوت أهميتها وقيمتها التاريخية إذا قيست بمعيار المنهج العلمي الدقيق، فيأتي في مقدمتها صحيحي البخاري ومسلم، يليها في المنزلة كتب السنن والمسانيد والمستدركات، مثل: سنن أبي داود، وسنن الترمذي، وسنن النسائي، وسنن ابن ماجة، وموطأ مالك، ومسند أحمد، وسنن الدارمي، ومستدرك الحاكم على الصحيحين.

ويتعلق بكتب الحديث مصنفات أخرى ذات قيمة تاريخية مهمة في تاريخ السيرة النبوية، وهي كتب الشروح، حيث قام أصحابها بتحقيق الأحداث وبيان القضايا التاريخية المتعلقة بهذه السيرة في إطار شرح الحديث، ومن أبرز هذه المصنفات:

- كتاب «فتح الباري بشرح صحيح البخاري» لابن حجر العسقلاني.
- كتاب شرح النووي على صحيح مسلم .

(١)ينظر ياسر نور: مصادر السيرة، ص٩٠، ٩٨.

كتب السيرة النبوية:

يعد نمط السيرة النبوية أول صور الكتابة التاريخية ظهوراً، وأولاها اهتماماً عند المسلمين، وقد عُني مؤرخو السيرة في معالجة مادتها خلال البحث عن التفاصيل الدقيقة، بقصد بناء صورة تاريخية مكتملة عن حياة الرسول ﷺ، مع الحرص على بيان البعدين الزماني والمكاني الذين تشكل من خلالهما أحداث هذه السيرة، ولهذا عنيت كتب السيرة بالتأريخ لحياة الرسول ﷺ قبيل الرسالة، ثم في فترة المبعث بمكة، وما جرى فيها من أحداث، ثم المرحلة المدنية وما شهدته من وقائع وملابسات.

غير أنه على الدارس التنبة إلى أن كتب السيرة النبوية ليست على نفس مستوى كتب الحديث من حيث ضبط مروياتها وتوثيق أخبارها، فهي أدنى منزلة منها، إذ جمعت بين الغث والسمين من الروايات، ويقرر الحافظ زين الدين العراقي[1] (ت٨٠٦هـ) هذه الحقيقة بقوله:

ولـيعلمِ الطالـبُ أنَّ السّـيَرَ تَجمَعُ ما صحَّ وما قدْ أنْكـرَا

كما يجب على الباحث التحلي بالرويّة، فلا يتسرع في إطلاق أحكام التضعيف حيال بعض مرويات السيرة الواردة في هذه المصنفات لمجرد ضعف أسانيدها، حيث يلزم عرضها أولاً على النصوص القرآنية، فإن توافقت معها فمعناها صحيح. كما أن ثمة نهج آخر يلزم اتباعه، وهو البحث عن شواهد لهذه الروايات في كتب الحديث والسنن، فربما وردت بها هذه الروايات من خلال طرق صحيحة وقوية فتدخل بذلك إلى دائرة القبول[2].

ولعل من أهم مصادر السيرة وأبرزها التي أرخت لحياة النبي ﷺ:

السيرة النبوية لمحمد بن إسحاق بن يسار (ت١٥٢هـ) الذي هذبها ابن هشام وغلب عليها اسمه فاشتهرت بنسبتها إليه.وتعد أوثق كتب السيرة المتخصصة التي وصلتنا، بل يمثل البناء الذي وضعه ابن إسحاق في هذا الكتاب، وطريقته في تبويب موضوعات هذه السيرة، الأسوة والمثال لجل من جاء بعده من مؤلفي السيرة والمغازي، ولهذا قال عنها الشافعي (ت٢٠٤هـ):«من أراد أن يتبحر في المغازي فهو عيال على ابن إسحاق»

ومن مصنفات السيرة الشهيرة، كتاب «المغازي» لمحمد بن عمر الواقدي (ت٢٠٧هـ)، وإذا كان ثمة خلاف بين العلماء حول مكانة الواقدي بوصفه محدّثا، إلا أنهم أقروا بإمامته وعلو شأنه في مجال سيرة ومغازي النبي ﷺ، حتى قال عنه الذهبي[3](ت٧٤٨هـ) «هو رأس في المغازي والسير».

---

(١)نظم الدرر السنية ص٢٩.
(٢)لمزيد من التفصيل يراجع سليمان العودة: السيرة النبوية في الصحيحين وعند ابن إسحاق.
(٣) الذهبي: تذكرة الحفاظ١/٣٤٨.

وهناك كذلك كتاب «الدرر في اختصار المغازي والسير» للحافظ ابن عبد البر القرطبي (ت٤٦٣هـ)، والذي أشار في مقدمته، أن هدفه من هذا الكتاب بناء نص مختصر للسيرة النبوية محرر من الحشو والتخليط، ومما تمتاز به مادة هذا الكتاب أنها جمعت بين كتب السيرة، وبين كتب الحديث والسنن.

ومن المصنفات المهمة في هذا الشأن كتاب «عيون الأثر في فنون المغازي والسير» للإمام الحافظ ابن سيد الناس (ت٧٣٤هـ)، وقد عرض في هذا المؤلف لجميع أحوال سيرته ﷺ، كما مزج في مصادره بين كتب السيرة وكتب الحديث، محاولة لاستخلاص سيرة متكاملة الجوانب من الناحية التاريخية.

ومنها كتاب «السيرة النبوية» للحافظ ابن كثير، وقد أدرجه ضمن كتابه الأشهر «البداية والنهاية»، وهو من المؤلفات ذات الفائدة العظيمة في مجال السيرة النبوية، حيث وظف قدراته كمحدّث بارع في نقد كثير مروياتها.

ومن المصنفات الجليلة في ذلك كتاب «زاد المعاد في هدي خير العباد» لابن قيم الجوزية (ت٧٧١هـ)، وعني فيه ببيان هدي النبي ﷺ في أغلب أحواله، بما في ذلك سيرته ومغازيه ﷺ. ويمتاز هذا المصنف عن كل مؤلفات السيرة التي سبقته كونه « أول كتاب في فقه السيرة »

كتب التاريخ الإسلامي بمختلف أنماطها:

اهتم المؤرخون المسلمون عبر العصور بالتصنيف من خلال مختلف الأنماط التاريخية، مثل: التاريخ العالمي، والتاريخ الإسلامي العام، والتراجم والطبقات، تاريخ المدن.. وقد عرضت جميعها للسيرة النبوية أو جانباً منها، وعلى الرغم مما حوته بشأنها من مادة تاريخية ثرية ومهمة، إلا أنه يجب الحذر في التعاطي معها، لما تحويه بشأنها من أخبار ضعيفة بل موضوعة. وتتمثل أنماط الكتابة التاريخية تناولت سيرة النبي ﷺ في الآتي.

- نمط التاريخ العام أو العالمي: يقصد به المؤلفات التي تؤرخ للأحداث منذ بدأ الخليقة حتى عصر المؤلف، من أشهرها: كتاب « التاريخ » لليعقوبي (ت٢٩٢هـ))، وكتاب «تاريخ الأمم والملوك» لابن جرير الطبري (ت٣١٠هـ). وكتاب « البداية والنهاية » لابن كثير الذي يعد أهم كتب التاريخ العام، حيث وظّف منهج المحدّثين في نقد كثير من مرويات السيرة وأخبارها.

- نمط التاريخ الإسلامي العام: والمراد به المؤلفات التي تؤرخ لتاريخ الإسلام منذ ظهور النبي ﷺ حتى عصر المؤلف، ومن أشهر المؤلفات في هذا الجانب: كتاب التاريخ لخليفة بن خياط (ت٢٤٠هـ)، وكتاب «تاريخ الإسلام» للذهبي (ت٧٤٨هـ)، وهو من أهم مصنفات هذا الشكل التاريخي التي تناولت السيرة النبوية، حيث وظف قواعد أصول الحديث في نقد كثير من أخبارها.

- نمط تاريخ المدن: وأبرزها في هذا الشأن الكتب التي أرَّخت لمكة والمدينة، مثل: «أخبار مكة» للأزرقي (ت٢٥٠هـ)، و«أخبار مكة» للفاكهي، و«شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام» للفاسي(ت٨٣٢هـ). «أخبار المدينة» لابن زبالة المدني (ت٢٠٠هـ)، و«أخبار المدينة» لعمر بن شبه (ت٢٦٢هـ)، و«وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى» للسمهودي (ت٩١١هـ). يضاف إليها مصنفات أرخت لمدن أخرى، مثل كتاب : «تاريخ مدينة دمشق» لابن عساكر (ت٥٧١هـ)، على الرغم من أن موضوعه ليس متعلقا بتاريخ مكة أو المدينة، ولكنه آثر أن يقدّم لكتابه بعرض شامل لأحداث السيرة، ولعل أهم مما يميز منهج ابن عساكر توظيفه لمنهج المحدّثين في نقد أخبارها.

- نمط الطبقات والتراجم: تعد كتب الطبقات أيضاً من أنماط الكتابة التاريخية التي عنيت بالتأريخ للسيرة النبوية، على الرغم مما يبدو ظاهراً اهتمامها ببيان طبقات رواة الحديث أو الفقهاء أو المفسرين و غيرهم، فإن بعضها عرض بشكل مفصل وثري لأحداث سيرة النبي ﷺ، والنموذج الأشهر في ذلك كتاب «الطبقات الكبرى » لابن سعد (ت٢٣٠هـ).

أما كتب تراجم الرواة والأعلام؛ فعنيت العديد منها بتخصيص مقام للحديث عن السيرة النبوية، مثل: كتاب « الاستيعاب في معرفة الأصحاب » لابن عبد البر (ت٤٦٣هـ)، حيث أفرد قسماً خاصاً في صدر كتابه، عرض فيه لأحداث السيرة النبوية، وإن جاء مختصراً موجزاً. وكذا حال ابن الأثير (ت٥٥٥هـ) في كتابه« أسد الغابة في معرفة الصحابة ». ومن أمثلة كتب التراجم المهمة التي تناولت أحداث السيرة وأخبارها، كتاب«صفة الصفوة» لابن الجوزي (ت٥٩٧هـ).

كتب الدلائل والشمائل والخصائص:

كتب الشمائل والدلائل والخصائص يجمعها مشترك واحد، وهو أنها تعنى بالجانب الذاتي أو الشخصي من حياة الرسول ﷺ، سواء على صعيد الجانب البشري المتعلق بصفاته الخِلقية، والخُلقية، ولباسه، ومأكله، ومشربه..إلخ. أو على صعيد الجانب المتصل بنبوته كمعجزاتهﷺ والشواهد الدالة عليها، والخصائص التي اختصه الله بها دون سواه من البشر..

وعلى الدارس أن يفطن إلى أن هذه المصادر أدنى منزلة من كتب الحديث على صعيد ضبط مرويات السيرة وتوثيقها، حيث جمعت إلى جانب الأخبار الصحيحة كثير من الروايات الضعيفة والموضوعة. ولعل من أهم المصنفات في هذا المجال من السيرة النبوية :

كتاب «الشمائل النبوية والخصائص المصطفوية »للترمذي (ت٢٧٩هـ)، وقد عرض الترمذي لمادة هذا الكتاب من خلال ٥٦ باباً، حاول خلالها أن يستوعب كافة موضوعات الشمائل النبوية، كهيئته، وملبسه، ومأكله، ومشربه، وخاتمه، وسلاحه، وطريقة مشيته، وجلوسه، ووضوئه، وعطره، وطريقة كلامه، وضحكه، ومزاحه، وصفة نومه، وصلاته، وصومه، وبكائه، وقراءته للقرآن، وأسمائه، وسنه، ووفاته، وميراثه...

كتاب « الشفا بتعريف حقوق المصطفى » للقاضي عياض اليحصبي (ت٥٤٤هـ)، وقد أبان فيه أن مقصده من هذا الكتاب التعريف ب«قدره الجسيم، وخلقه العظيم، وبيان خصائصه التي لم تجتمع قبل في مخلوق، وما يدان الله تعالى به من حقه الذي هو أرفع الحقوق..»، ولهذا جمع فيه كثيراً من شمائل النبي ﷺ، وأوصافه، ومعجزاته، وكراماته، وما يجب في حقه.

كتاب «دلائل النبوة» لأبي نعيم الأصبهاني (ت٥٣٥هـ)، تناول دلائل نبوته ﷺ قبل البعثة، فذكر ما تعلق منها بحال ولادته، وفي صباه، كما تعرض لذكر معجزاته كحادث انشقاق القمر وتسبيح الحجر بين يديه..، وإخبار بعض اليهود عن صفته في التوراة، وهلاك المستهزئين به من كفار مكة، وإسلام الجن، وإخباره ﷺ بأمر الجساسة والدجال، ورؤيته من خلفه، والأشياء التي أخبر عنها الرسول ﷺ.

كتاب «الخصائص الكبرى» للسيوطي (ت٩١١هـ): ومن أهم ما ألف في هذا الموضوع. والكتاب مقسم إلى أبواب رئيسة، تناولت بداخلها الموضوعات المتعلقة بخصائص نبوته، مثل: كونه أول النبيين في الخلق، وتبشير الأنبياء والمرسلين به على مر الدهور والأزمان، وإخبار الأحبار والرهبان والكهان عنه قبل بعثته. هذا إلى جانب خصائصه فيما يتعلق بجوانب ولادته، ونشأته، وهيئته، وصفاته، وأخلاقه، ومعجزاته.

٢ـإطلالة على أحوال العالم القديم وجزيرة العرب قبل بعثة النبي ﷺ

سنعرض بإيجاز في هذا المقام لأحوال العالم القديم وكذا عرب الجزيرة العربية قبل البعثة النبوية، لندرك أن البشرية كانت في مسيس الحاجة إلى ظهور النبي الخاتم ﷺ، ليحيي قلوباً غلفاً، ويفتح أعيناً عمياً، ويسمع آذاناً صماً، ويقيم ألسنة عوجاً، حتى يقال: لا إله إلا الله وحده.

من المعلوم أن العالم القديم تقاسمته قوتان هما: دولة الروم ودولة الفرس، ويأتي من ورائهما الهند والصين.

أما دولة الروم ممثلة الإمبراطورية البيزنطية الشرقية، فكانت تسيطر عليها الروح الاستعمارية، والظلم الاجتماعي الذي مارسته على الشعوب الضعيفة. فضلاً عما كانت تغط فيه من حياة الترف والانحلال الأخلاقي، فانهارت بها أسس الفضيلة حتى صار الناس يفضلون العزوبة على الحياة الزوجية ليقضوا مآربهم في حرية، وكان العدل يباع ويساوم على شرائه مثل السلع، ونالت الرشوة والخيانة التشجيع من المجتمع. ومن ناحية أخرى اعتصرت هذه الإمبراطورية ظاهرة الصراع العقائدي والاضطهاد المذهبي الذي جرى بين الدولة وبين رعاياها في الشام ومصر

بسبب الخلاف حول ذات المسيح، وهذا ما أودى بالنصرانية لأن تكون مزجاً من الخرافات اليونانية والوثنية الرومية والأفلاطونية المصرية والرهبانية. كل هذا أسهم بشكل مباشر في تردي هذه الإمبراطورية وهبوطها إلى مرحلة النهاية مع أخريات القرن السادس كما بيّن ذلك (إدوارد جيبون)

أما الأمم الأوروبية المتوغلة في الشمال والغرب، فكانت تتسكع في ظلام الجهل، والأمية، والحروب الدامية، لم ينبثق فيها فجر الحضارة والعلم بعد بل كانت بمعزل عنها. ويقول روبرتبريفولت (R.Briffault)(١):« لقد أطبق على أوربا ليل حالك الظلام والسواد من القرن الخامس إلى القرن العاشر، وكانت همجية ذلك العهد أشد هولاً وأفظع من همجية العهد القديم، لأنها كانت أشبه بجثة حضارة كبيرة قد تعفنت، وقد انطمست معالم هذه الحضارة وقضي عليها بالزوال..».

أما عن أحوال الإمبراطورية الفارسية، فكانت مرتعاً لهرطقات وفلسفات دينية متصارعة، فظهرت الزرادشتية التي اعتنقتها الطبقة الحاكمة، فكان من شرعتها جواز زواج الرجل بالمحرمات مثل: أمه أو ابنته أو أخته، ولم يكن يعد هذا الزواج معصية عند الإيرانيين، بل كان عملاً صالحاً يتقربون به إلى الله، ولهذا تزوج يزدجرد الثاني الذي حكم الفرس من ابنته في أواخر القرن الخامس الميلادي، كما تزوج بهرام جوبين الذي تملك في القرن السادس من أخته.

---

(1)The Making of Humanity.London:1919, P.164

وكرد فعل ضد هذه النزعة الشهوية السائدة في البلاد، ظهر مذهب (ماني)، والذي دعا إلى حياة العزوبة، وحرَّم النكاح استعجالاً للفناء وانتصاراً للنور على الظلمة بقطع النسل، وبالرغم من مقتله سنة ٢٧٦م، إلا أن تعاليمه لم تمت بموته بل عاشت إلى ما بعد الفتح الإسلامي(١).

ثم ظهرت « المزدكية » نسبة إلى واضع أفكارها (مزدك) الفارسي، الذي ولد عام ٤٨٧م، حيث أعلن أن الناس ولدوا سواء لا فرق بينهم ، ومن ثم ينبغي أن يعيشوا سواء لا فرق بينهم، كما أوجب أن يكون المال والنساء مشاعاً بين الناس كشيوع النار والماء. يقول الشهرستاني(٢): « أحل النساء وأباح الأموال، وجعل الناس شركة منها، كاشتراكهم في الماء والنار والكلأ ». وحظيت هذه الأفكار المنحرفة بقبول عظيم لدى أهل المجون وأصحاب الأهواء، بل نالت حماية البلاط الفارسي فأخذ (قباذ) يناصرها ونشط في نشرها وتأييدها حتى انغمست إيران بتأثيرها في الفوضى الخلقية وطغيان الشهوات، يقول الطبري(٣):« فافترض السّفلة ذلك واغتنموا وكانفوا مزدك وأصحابه وشايعوهم، فابتلي الناس بهم وقوي أمرهم حتى كانوا يدخلون على الرجل في داره فيغلبونه على منزله ونسائه وأمواله لا يستطيع الامتناع منهم، وحملوا قباذ على تزيين ذلك وتوعدوه بخلعه فلم يلبثوا إلا قليلاً حتى صاروا لا يعرف الرجل ولده ولا المولود أباه ولا يملك شيئاً مما يتسع به .. ولم يزل قباذ من خيار ملوكهم حتى حمله مزدك على ما حمله عليه فانتشرت الأطراف وفسدت الثغور».

أما عن أحوال الصين قبيل بعثة النبي الكريم ﷺ، فكانت تسود فيها ثلاث ديانات: ديانة (لا وتسو)، وديانة (كونفوشيوس)، والديانة (البوذية)، أما الأولى فكانت وثنية تنزع إلى التقشف والزهد، وكان أتباعها لا يتزوجون ولا ينظرون إلى المرأة ولا يتصلون بها اتصالاً.

أما الكونفوشيوسية فانحصرت تعاليمها في الشؤون الدنيوية وتدبير الأمور المادية والسياسية والإدارية، ولم يكن أتباعها في بعض الأزمنة يؤمنون بإله معين، فكانوا يعبدون ما يشاؤون من الأشجار والأنهار، ومن ثم فتعاليمها لا تعدو عن مجرد حكمة مؤسسها كونفوشيوس وتجاربه في الحياة، يفيد منها من يشاء ويرفضها من يشاء.

أما عن البوذية فقد فقدت بساطتها وحماستها، وتحولت إلى وثنية تعبد الأصنام وتبني لها الهياكل، وتنصب تماثيل بوذا حيث حلت ونزلت، ومن ثم لم يكن عند الصينيين رسالة دينية للعالم يحلون بها مشاكله(٤).

---

(١) أبو الحسن الندوي: ماذا خسر العالم ص٤١
(٢)الشهرستاني: الملل والنحل٢/٢٧٦.
(٣)تاريخ الأمم والملوك ١/٤١٩.
(٤) الندوي: ماذا خسر العالم ص٤٦ :٤٨

أما ما يتعلق بشأن الهند، فيقول الندوي(١):« اتفقت كلمة المؤلفين في تاريخها أن أحط أدوارها ديانة وخلقاً واجتماعاً، ذلك العهد الذي يبتدئ فيه من مستهل القرن السادس الميلادي». فلم يعرف في تاريخ أمة من الأمم نظام طبقي أشد قسوة وأعظم استهانة بشرف الإنسان من النظام الذي اعترفت به الهند دينياً ومدنياً، وخضعت له آلافاً من السنين ولا تزال ، وقد أصبح قانوناً رسمياً ومرجعاً دينياً يعرف الآن ب «منوشاستر». وهذا القانون صنف أهل البلاد إلى أربع طبقات:

- طبقة الكهنة ورجال الدين (طبقة البراهمة).

- رجال الحرب والجندية (طبقة الشتري).

- رجال الزراعة والتجارة (طبقة الويش).

- رجال الخدمة، أي من يقومون بخدمة هذه الطبقات الثلاث السابقة (طبقة الشودر).

وقد منح هذا القانون طبقة البراهمة امتيازات وحقوقاً ألحقتهم بالآلهة، فهم صفوة الله، وملوك الخلق، وهم أفضل الخلائق وسادة الأرض، ولهم أن يأخذوا من مال عبيدهم (الشودر) من غير جريرة ما شاءوا، لأن العبد لا يملك شيئاً وكل ماله لسيده. أما «الشتري» فإن كانوا فوق طبقتي «الويش» و«الشودر» ولكنهم دون البراهمة بكثير.

أما المنبوذون الأشقياءوهو طبقة «شودر»، فبنص هذا القانون كانوا أحط من البهائم وأذل من الكلاب، ومن نصوص القانون الدالة على ذلك:

– من سعادة شودر أن يقوموا بخدمة البراهمة وليس لهم أجر وثواب بغير ذلك. وليس لهم أن يقتنوا مالاً أو يدخروا كنزاً فإن ذلك يؤذي البراهمة.

– وإذا مد أحد من المنبوذين إلي برهمي يداً أو عصاً ليبطش به قطعت يده، وإذا رفسه في غضب فدعت رجله.

– وإذا هم أحد من المنبوذين أن يجالس برهمياً، فعلى الملك أن يكوي مؤخرته وينفيه من البلاد. وأما إذا مسه بيد أو سبه فيقتلع لسانه، وإذا ادعى أنه يعلمه سقي زيتاً فائراً.

– كفارة قتل الكلب والقطة والضفدعة والوزغ والغراب والبومة ورجل من الطبقة المنبوذة سواء(٢).

وعن حال المرأة في المجتمع الهندي، فلم يكن لها قيمة ولا عصمة، فكانت منزلتها منزلة الإماء والعبيد، حتى أن الرجل يخسر امرأته في القمار، كما انتشرت بهذا المجتمع عادة إحراق المرأة المتوفى زوجها

(١) المرجع نفسه ص ٤٨
(٢) الندوي: ماذا خسر العالم ص٥١

أما عن أحوال العرب قبل الإسلام، فسنعرض لها في هذا المقام على الصعيد السياسي، والعسكري، والاقتصادي، والاجتماعي، والديني.

الأحوال السياسية والعسكرية:

مثلت القبيلة عند العرب في الجاهلية جوهر كيانهم السياسي، بل مصدر قوتهم وأساس توحدهم، فرباط العصبية كان يفرض على كل فرد في القبيلة تلبية نداء قبيلته إذا دعته إلى نصرتها في أوقات الحروب، والتحيز والتعصب لها في الحق والباطل، ولهذا ترسّخ في روعهم المبدأ الجاهلي الشهير «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً» والدال عليه قول جندب بن العنبر:

يا أيُّها المرء الكريم المَشْكُوم ... انصر أخاك ظالماً أو مَظْلوماً(١)

وكان حب القتال مغروساً في نفوسهم حتى تحول إلى شغف بالسيطرة والغلبة، وساد المعتقد بينهم أن الحق لا يمكن الوصول إليه إلا بالظلم والعدوان، ويدل على ذلك قول زهير بن أبي سلمى في معلقته الشهيرة:

وَمَنْ لَمْ يَذُدْ عَنْ حَوْضِهِ بِسِلاحِهِ ... يُهَدَّمْ وَمَنْ لا يَظْلِمِ النَّاسَ يُظْلَمِ(٢)

وكان جميع أفراد القبيلة يُستنفرون للحرب عن طريق نداء شيخ القبيلة مدفوعين حيال ذلك ببواعث العصبية القبلية.

وكان أسرى المعارك والحروب يساقون عبيداً عند الغالبين، إلى أن تفتديهم قبيلتهم بالمال. والفداء يكون عادة بعدد كبير من الإبل، ويتفاوت قدره بحسب منزلة الأسير في قومه. وقد يتعرض الأسير للقتل كما فعل المنذر بن امريء القيس مع أسرى بكر بن وائل(٣)، ولكن ذلك يعد من الأمور المستقبحة عند العرب(٤)، وقد يكتفي بجز ناصية الأسير وإطلاق سراحه على سبيل الإذلال والمهانة، ويحتفظ الغالب بناصية الأسير رمزاً لانتصاره(٥). أما حال أسْر الشاعر فكانوا يشدون لسانه بنِسعة(٦) حتى لا يهجوهم، فالهجاء في الجاهلية كان أشد وطأة على الأعداء من وقع الرماح والسيوف

وفيما يخص الأسيرات من النساء فكن يقعن سبايا، ويلحق بأولادهن العار مدة حياتهم. وفي بعض الأحيان كن يُتخذن زوجات، وأحيان أخرى يكن أمهات لأبنائهن دون الاعتراف بهن بوصفهن زوجات(٧).

---

(١) الميداني: مجمع الأمثال (٤٢٠٢) ٣٤٣/٢.
(٢)ديوان زهير بن أبي سلمى ص١١١.
(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ٣٣٤/١ .
(٤) الحوفي: الحياة العربية من الشعر الجاهلي ص٢٠١.
(٥)الآلوسي: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب١٥/٣.
(٦) النسعة: خيط من الجلد مضْفور يُجعل زماما للبعير وغيره. ابن الأثير: النهاية ٥١٥/٥.
(٧)عبد العزيز سالم: تاريخ الدولة العربية ص٢٣.

أما عن الثأر فكان إذا قتل رجل من قبيلة رجلاً من قبيلة أخرى، لزم على قبيلة القتيل أن تأخذ بالثأر من القاتل وتطالب بتسليمه للقصاص، ولكن عصبية القبيلة جعلت من تسليم القاتل بمثابة عار عليها، كما أن قبول الدية من قبيلة القاتل يعد عاراً على قبيلة القتيل. وقد تقبل بعض القبائل دفع الديات، وكانت دية النفس عند عامة القبائل مائة من الإبل، أما دية الملوك والأشراف فتصل إلى ألف بعير(١).

كانت الحروب والمعارك التي تنشأ بين العرب قبل الإسلام تحكمها دوافع خاصة، ولكثرة سفك الدماء توافق العرب على تجريم القتال في أشهر أربعة عرفت بالأشهر الحرم (ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب)، التي كانت تُعظم منذ عهد إبراهيم وولده إسماعيل عليهما السلام. وبالرغم من ذلك فقد ظهر تحايل على هذه الأشهر واستهانة بحرمتها من خلال ما عرف بـ«النسيء»، فكانوا ينسئون هذه الشهور أي يؤخرونها ويحلون مكانها أشهراً يبيحون فيها القتال، وأول من نسأ الشهر حذيفة بن عبد فقيم من بني الحارث بن مالك بن كنانة، وفي هذا يقول أحدهم:

ألسْنا الناسئينَ على مَعد ... شُهُورَ الحِل نَجْعلُهَا حَرَاما (٢)

الأحوال الاجتماعية:

عاش العرب قبل الإسلام في أوساط اجتماعية متنوعة تختلف أحوال بعضها عن بعض، ففي وسط أشراف القبيلة كانت علاقة الرجل بالمرأة على درجة كبيرة من الرقي، حيث كانت مصونة تسل دونها السيوف، بل ربما إذا شاءت المرأة جمعت القبائل للسلام، وإن شاءت أشعلت بينهم نار الحرب والقتال، ومع هذا كله فالرجل هو رب الأسرة وصاحب الكلمة فيها بلا نزاع، وكان ارتباط الرجل بالمرأة يتم بعقد الزواج تحت إشراف أوليائها، ولم يكن من حقها أن تخالفهم.

بينما كان ذلك هو حال الأشراف، ففي أوساط المجتمع الأخرى أنواع من العلاقات بين الرجل والمرأة، يمكن أن يعبر عنها بالسفاح والفاحشة. وقد ذكرت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها منها: نكاح «الاستبضاع»، وصورته أن يقول الرجل لامرأته إذا طهرت اذهبي إلى فلان فاستبضعي منه، ويعتزلها زوجها ولا يمسها أبداً حتى يتبين حملها، وإنما يفعل ذلك رغبة في نجابة الولد من الذكور. ومنها ما عرف بنكاح «الرهط» وهم دون العشرة في العدد، حيث يدخلون جميعهم على المرأة فيصيبونها، فإذا حملت ووضعت أرسلت إليهم، فلم يستطع الرجل منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها، فتقول لهم: قد عرفتم الذي كان من أمركم وقد ولدْت، وهو ابنك يا فلان، فتسمي من أحبت منهم باسمه فيلحق به ولدها.

---

(١) الألوسي: بلوغ الأرب ٢٤/٣.
(٢) ابن هشام: السيرة النبوية ٤٤٤/١، جواد علي:المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام١٣١٩/٣.

ومنها أيضا نكاح البغايا، وكن ينصبن على أبوابهن رايات، تكون علماً لمن أرادهن أن يدخل عليهن، فإذا حملت إحداهن فوضعت حملها اجتمعوا عندها، ودعوا لهم القافة(١)، ثم ألحقوا ولدها بالذي يشبه أحدهم شكلاً فينسب إليه ولا يمتنع عن ذلك(٢).

ومن أنواع الأنكحة الفاسدة التي مورست في الجاهلية نكاح «البدل»، وصورته أن يقول الرجل للرجل: انزل لي على امرأتك، وأنزل لك عن امرأتي وأزيدك(٣).

ومنها نكاح «الشغار»، وهو أن يزوج الرجل ابنته على أن يزوجه الآخر ابنته، ليس بينهما صداق

ومن المتعارف عليه أيضاً في الجاهلية التعدد بين الزوجات من غير حد، والجمع بين الأختين، كما كانوا يتزوجون بزوجة آبائهم إذا طلقوها أو ماتوا(٤)، وكان الطلاق بيد الرجل وغير محدود بعدد، إلى نسخ ذلك بقوله تعالى {الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ}

كانت فاحشة الزنا سائدة في أوساط العرب عامة،إلا فئة من الرجال والنساء الحرائر الذين أنفت نفوسهم أن تقترف هذه الرذيلة. ويبدو أن الأغلبية من أهل الجاهلية لم تكن تشعر بعار الانتساب إلى هذه الفاحشة، فيروي عمرو بن العاص تأن رجلاً قال للنبي ﷺ:« يا رسول الله إن فلاناً ابني، عاهرت بأمه في الجاهلية، فقال رسول الله ﷺ:« لا دعوة في الإسلام، ذهب أمر الجاهلية..»

ومن سوء عاداتهم التي مارسوها في الجاهلية وأد البنات خشية العار والإنفاق، وقتل الأولاد خشية الفقر، وقد أشار القرآن إلى ذلك في عدد من آياته، فقال تعالى: ﴿ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴾ وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ (٥).

(١)القائف: الرجل الذي يتتبع الآثار ويعرفها ويعرف شبَه الرجل بأَخيه وأَبيه. ابن منظور: لسان العرب، مادة (قوف) ٢٩٣/٩.
(٢)أبو داود: السنن(٢٢٧٢) ٦٩١/١، صححه الألباني.
(٣) الدارقطني: السنن (٣) ٢١٨/٣
(٤)يقول تعالى: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [سورة النساء: آية ٢٣].
(٥) سورة النحل: آية ٥٩،٥٨.

وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴾(١).

من هذه العادات أيضاً شرب الخمر ولعب الميسر، يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾(٢).

الأحوال الاقتصادية:

مارس العرب قبل الإسلام عديد من الأنشطة الاقتصادية، يأتي في مقدمتها التجارة، وكانت تمثل عندهم أشرف المهن قدراً ومكانة، ولا شك أن الموقع الجغرافي للجزيرة العربية جعلها مؤهلة لأن تحتل مركزاً متقدماً في التجارة الدولية آنذاك.

كان أهل المدن من سكان الجزيرة العربية هم الذين يمارسون التجارة، لا سيما أهل مكة، فلقريش رحلتان عظيمتان شهيرتان: رحلة الشتاء إلى اليمن، ورحلة الصيف إلى الشام، قال تعالى: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ﴾.

كانت القوافل تحمل الطيب والبخور، والصمغ، واللبان، والتوابل، والتمور، والروائح العطرية، والأخشاب الزكية، والعاج، والأبنوس، والخرز، والجلود، والبرود اليمنية والأنسجة الحريرية، والأسلحة وغيرها مما يوجد في شبه الجزيرة، أو يكون مستورداً من خارجها، ثم تذهب به إلى الشام وغيرها ثم تعود محملة بالقمح، والحبوب، والزبيب، والزيتون، والمنسوجات الشامية وغيرها.

كما اشتهر اليمنيون بمزاولة التجارة براً وبحراً، فسافروا إلى سواحل إفريقيا وإلى الهند وإندونيسيا، وسومطرة وغيرها من بلاد آسيا، وجزر المحيط الهندي، وكان لهم فضل كبير بعد اعتناقهم الإسلام في نشره بهذه الأقطار.

ومن ناحية أخرى مارس العرب الزراعة في بعض المناطق ذات الأراضي الخصبة، واعتمدت عليها حياتهم وحياة مواشيهم، كما هو الحال في اليمن، والعديد من مناطق الحجاز مثل: يثرب، وخيبر، والطائف. وأنتجت بأراضي هذه المناطق عديد من المزروعات والمحاصيل والفاكهة، مثل: النخيل، والعنب، والزيتون، والرمان، والثوم، والبصل، والشعير..

(١) سورة الإسراء: آية ٣١ .
(٢) سورة المائدة:آية ٩٠.

وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك في أكثر من موضع، مثل قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٖ مَّعۡرُوشَٰتٖ وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَٰتٖ وَٱلنَّخۡلَ وَٱلزَّرۡعَ مُخۡتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٖۚ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿١٤١﴾ ﴾[1].

أما على صعيد الحرف والصناعات؛ فقامت العديد منها في حواضر الجزيرة العربية، وذلك لتوفر المواد الأولية الزراعية والحيوانية، وكان من صنوفها كما في يثرب: الصناعات الغذائية، وصناعة الجلود، والصياغة، والحدادة، والصناعات المعدنية، مثل: صناعة الأسلحة والدروع، وكذا التي تعتمد على الإنتاج الزراعي مثل:صناعة الخمور والمكاتل..(٢).

وقد شاب بعض الأنشطة الاقتصادية في الجزيرة العربية معاملات غير أخلاقية قوامها الربا أو الغش أو الغرر، ولهذا جاء الإسلام بتحريمها.منها:بيع المحاقلة، وهو بيع الحب في سنبله بحب صاف، أو كراء الأرض بجزء مما يخرج منها (٣). ومنها المزابنة، وتعني شراء الرجل الثمر بالتمر في رؤوس النخل(٤).ومنها بيع الرجل للثمر قبل أن يزهو ويبدو صلاحه(٥).ومنها بيع النجش، وصورته أن يزيد التاجر في ثمن السلعة وهو لا يرغب في شرائها، وإنما ليخدع غيره ويوقعه في شرائها(٦).

الأحوال الدينية:

ظل العرب مقيمين على دين إبراهيم عليه السلام، إلى أن وليت خزاعة أمر البيت الحرام، فخرج منهم أول من جلب عبادة الأصنام إلى الجزيرة العربية، وهو عمرو ابن لحي الخزاعي، فقد أخبر النبي ﷺ أنه «أول من حمل العرب على عبادة الأصنام».

وبمرور الوقت انزوى دين إبراهيم عن وجدان عرب الجزيرة، فلم يبق منه سوى قليل من الشعائر، مثل: تعظيم البيت الحرام، والحج إليه، والوقوف بعرفة ومزدلفة... وحتى هذه الشعائر مزجوها بطقوس شركية وثنية، كقولهم في التلبية «لبيك اللهم لبيك لا شريك لك إلا هو لك تملكه وما ملك »، وكطوافهم بالبيت عرايا(٧). بل أحاطوا الكعبة ب٣٦٠ صنماً أزالها النبي ﷺ يوم فتحه مكة.على أية حال أضحى الشرك أصلاً في نفوس العرب، فجبلت عقائدهم عليه، ومسخت فطرهم لتألفه.

---

(١)الأنعام: آية ١٤١.
(٢)ينظر جواد علي: تاريخ العرب قبل الإسلام ٩٥٠/٣ وما بعدها.
(٣)البخاري: الصحيح(٢٠٧٤) ٢/ ٧٦٣، مسلم: الصحيح (٣٩٩٤) ١٣/٥، ١٨.
(٤)البخاري: الصحيح(٢٠٧٢) ٢/ ٧٦٣، مسلم: الصحيح(٣٩٥٨) ١٣/٥.
(٥)البخاري: الصحيح(٢٠٨٥) ٢/ ٧٦٦.
(٦) البخاري: الصحيح، (٢٠٣٣) ٥٧٢/٢، مسلم: الصحيح، (٣٥٢٤) ١٣٨/٤.
(٧) ابن الكلبي: الأصنام ص٦، ٧.

صُورت هذه الأصنام على أشكال متنوعة، فمنها ما كان على صورة الإنسان، ومنها ما كان على هيئة الحيوان، كما أنهااتخذت من مواد مختلفة، فبعضها صنع من الخشب، وبعضها من الحجارة، والبعض الآخر من مواد شتى.

وكان مما عبدته قريش في الجاهلية: «هبل» و«إساف» و«نائلة». وذكر ابن إسحاق(١) أنهم اتخذوا إسافاً ونائلة على موضع زمزم ينحرون عندهما، وكانت عائشة ل تقول:«ما زلنا نسمع أن إسافاً ونائلة كانا رجلاً وامرأة من جرهم، أحدثا في الكعبة، فمسخهما الله تعالى حجرين». كما عبدت ثقيف صنم «اللات» بالطائف. وعبدت الأوس والخزرج صنم «مناة». وعبدت دوس وخثعم وبجيلة صنم «ذو الخلصة»، والذي كان يقال له :«الكعبة اليمانية» تميزاً له عن البيت الحرام بمكة والذي كان يعرف بـ« الكعبة الشمالية»، هذا إلى جانب أصنام أخرى عديدة أفاضت المصادر في ذكرها(٢).

وإلى جانب هذه الأصنام عبد العرب بعض مظاهر الطبيعة، فعبدوا النجوم والكواكب خاصة في حران والبحرين. وعُبدت الشمس في بلاد اليمن، يقول تعالى عن ملكة سبأ: ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴾(٣).

وعلى صعيد آخر تسربت إلى العرب بعض الفلسفات المجوسية الفاسدة، يقول ابن قتيبة(٤)(ت٢٧٦هـ):« كانت المجوسية في تميم، منهم زرارة بن عدس التميمي، وابنه حاجب بن زرارة.. ومنهم الأقرع بن حابس». كما تسربت الزندقة إلى قريش حيث انتقلت إليهم عن طريق الحيرة(٥).

أما عن الديانتان اليهودية والمسيحية، فقد تواجدت اليهودية ببلاد العرب في يثرب وخيبر ووادي القرى وفدك وتيماء، وكذا اليمن حيث دانت بها «حمير»، و«بني كنانة»، و«بني الحارث بن كعب» و«كندة»(٦). أما النصرانية فانتشرت بين الغساسنة في شمال بلاد العرب، وبجنوبها في ظفار وعدن ونجران. كما اعتنقتها بعض قبائل قريش، مثل: بني عبد أسد، وبنو امريء القيس، وبنو تغلب..(٧) .

---

(١)السير والمغازي ص٢٤، ابن هشام: السيرة ٨٣/١.
(٢)لمزيد من التفاصيل يراجع كتاب الأصنام للكلبي.
(٣)سورة النمل: آية ٢٤.
(٤) ابن قتيبة : المعارف ص٦٢١.
(٥) ابن قتيبة: المعارف ص٦٢١.
(٦) ابن قتيبة: المعارف ص٦٢١، مهدي رزق الله: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ص٧١.
(٧)ابن قتيبة: المعارف ص٦٢١، مهدي رزق الله: السيرة النبوية ص٧١، ٧٢.

وبالرغم من ذلك لم تحقق اليهودية والمسيحية انتشاراً واسعاً في جزيرة العرب، بل عجزتا أن تنهضا طوق نجاة يحول دون عبادة أهلها لهذه الأصنام والأخذ بأيديهم إلى حظيرة التوحيد الخالص لله رب العالمين، فاليهودية عبثت بشريعتها أيدي التحريف والنزعة العنصرية والإغراق في العزلة والذاتية، والنصرانية أصابها الفساد العقدي والانشقاق الكنسي والاضطهاد المذهبي.

وفي هذا السياق تشير الروايات إلى ظهور طائفة عرفت بـ«الحنيفية»(١)، عنوا بالبحث عن دين إبراهيم عليه السلام قبيل البعثة المحمدية، وقد التقى النبي ﷺ ببعضهم في هذه الفترة، وربما كان ظهورهم في هذه المرحلة تمهيداً لمجتمع مكة والجزيرة العربية لاستقبال رسالة الإسلام الخاتمة. ولعل من أشهر المتحنفين الذين عاصروا النبي ﷺ قبيل الرسالة:

ورقة بن نوفل الذي خرج يبحث عن دين إبراهيم، إلى أن انتهى به الحال إلى اعتناق المسيحية في بلاد الشام، وقد ثبت أنه كان على المعتقد الصحيح من دين عيسى وليس على المسيحية المحرّفة، ومما أُثر عنه في جانب التوحيد أبيات من الشعر قالها في سياق نعيه لزيد بن عمرو بن نفيل لما وافته المنية فقال:

رشـــدت وأنعمـــت ابـــن عمـــرو	وإنما تجنبت تنوراً من النار حامياً
بـــدينك ربـــاً لـــيس رب كمثلـــه	وتركك أوثان الطواغي كما هيا
وإدراكـك الـدين الـذي قـد طلبتـه	ولم تك عن توحيد ربك ساهيا(٢)

ومن أشهرهم كذلك زيد بن عمرو بن نفيل، وقد التقاه النبي ﷺ قبيل البعثة، ولما سئل عنه قال ﷺ:«أنه كان يستقبل القبلة في الجاهلية، ويقول: إلهي إله إبراهيم وديني دين إبراهيم ويسجد»(٣).وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: « **دخلت الجنة فرأيت لزيد بن عمرو بن نفيل دوحتين**»(٤).

(١) سموا بذلك نسبة إلى ما وصف به دين إبراهيم في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ الأنعام: آية ١٦١، وقوله تعالى: ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ ۗ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: آية ٩٥].

(٢)ابن هشام: السيرة ٢٣٢/١.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية٣٠٠/٢ .

(٤) يقول ابن كثير: وهذا إسناد جيد وليس هو في شيء من الكتب. المصدر نفسه ٣٠٠/٢.

ومن شعره الدال على عقيدته:

أربًّـــا واحـــدًا أم ألـــفَ رب؟؟ أديـــن إذا تقسِّـــمت الأمـــورُ؟

عزلـــتُ الـــلات والعـــزى جميعًـــا كـــذلك يفعـــل الجلـــد الصـــبورُ

فـــلا العـــزى أديـــن ولا ابنتيهـــا ولا صـــنمي بنـــي عمـــرو أزورُ

ولا غنمـــا أديـــن وكـــان ربـــا لنـــا فـــي الـــدهر، إذا حلمـــي يســيرُ

إلى أن قال:

ولكـــن أعبـــد الـــرحمن ربـــي ليغفـــر ذنبـــي الـــربُّ الغفـــور[1]

ومن المتحنفة المشهورين في هذا العصر قُس بن ساعدة الأيادي، وكان ممن يؤمن بتوحيد الله وترك عبادة الأوثان، بل وبالبعث بعد الموت، وقد رآه النبي ﷺ قبل البعثة، فعن ابن عباس رضي الله عنه قال :«قدم وفد عبد القيس على رسول الله ﷺ فقال: «أيكم يعرف القس بن ساعدة الأيادي ؟»، قالوا: كلنا يا رسول الله يعرفه قال: «فما فعل ؟»، قالوا: هلك، قال: «ما أنساه بعكاظ في الشهر الحرام وهو على جمل أحمر وهو يخطب بالناس وهو يقول: يا أيها الناس اجتمعوا واستمعوا وعوا، من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت، إن في السماء لخبراً، وإن في الأرض لعبراً، مهاد موضوع، وسقف مرفوع، ونجوم تمور، وبحار لا تغور. أقسم قس قسماً حقاً لئن كان في الأرض رضا ليكونن بعده سخط، إن الله لدينا هو أحب إليه من دينكم الذي أنتم عليه، مالي أرى الناس يذهبون ولا يرجعون ؟ أرضوا فأقاموا أم تركوا فناموا ؟. ثم قال ﷺ: أفيكم من يروي شعره ؟»، فأنشده بعضهم :

فـــي الـــذاهبين الأوليـــ ـــن مـــن القـــرون لنـــا بصـــائر

لمـــا رأيـــت مـــوارداً للمـــوت لـــيس لهـــا مصـــادر

ورأيـــت قـــومي نحوهـــا يســـعى الأصـــاغر والأكـــابر

لا يرجـــع الماضـــي إلـــيّ ولا مـــن البـــاقين غـــابر

أيقنـــت أنـــي لا محـــا لـــة حيـث صـار القـوم صـائر[2]

(١)ابن هشام: السيرة ٢٣٢/١، ابن كثير: البداية والنهاية٢٢٦/٢، ٢٢٧.
(٢)الطبراني: المعجم الكبير (١٢٥٩١) ٨٨/١٢. ذكر البيهقي أن الحديث ورد من عدة أوجه «وإن كان بعضها ضعيفاً دل على أن للحديث أصلاً ». دلائل النبوة١١٣/٢.

٣-حكمة اختيار الجزيرة العربية لتكون مهدًا للإسلام

وعلى الرغم مما كان عليه العرب في الجزيرة العربية من رذائل الخصال كما سبق البيان، فقد جبلت طبائعهم على جملة من الأخلاق والفضائل الكريمة، أسهم في إذكائها الموقع الجغرافي للجزيرة العربية، لكونهابعيدة منعزلة عن ملوثات الحضارة القديمة، ولم يكن لدى أهلها من الترف والمدنية الفارسية ما يجعلهم يتفننون في خلق وسائل الانحلال، وفلسفة مظاهر الإباحية، والانحطاط الخلقي، ووضعها في قوالب من الدين. كما لم يكن لديهم من الطغيان العسكري الروماني ما يبسطون به أيديهم بالتسلط على أي رقعة من حولهم، ولم يؤتوا من ترف الفلسفة والجدل اليوناني ما يصبحون به فريسة للأساطير والخرافات، ومن ثم كانت طبائعهم أشبه ما تكون بالمادة الخام، وكان لذلك عظيم الأثر في تلقي الإسلام بفطرة سليمة نقية،أسهمت في النهوض بالدعوة وانتشارها في ربوع الأرض[١]، لعل من أبرزها:

فضيلة الكرم، فكانوا يتسابقون ويتنافسون في بذله، حتى إن الرجل يأتيه الضيف في شدة البرد والجوع، وليس عنده إلا ناقته التي هي حياته وحياة أسرته فينهض بذبحها له.

ومن هذه الخصال أيضاً الوفاء بالعهد الذي مثَّل عندهم ديناً يعتصمون به، ويستهينون في سبيله قتل الأولاد وخراب الديار.

ومنها كذلك عزة النفس والإباء عن قبول الذل والضيم، فلا يسمعون كلمة يشمون منها رائحة الهوان إلا قاموا إلى السيف، وأثاروا الحروب، وضحوا بأنفسهم في هذا السبيل.

ومن خصالهم الكريمة المضي في العزائم، فإذا عزموا على شيء يرون فيه المجد والافتخار لا يحولهم عنه حائل[٢].

---

(١) البوطي: فقه السيرة ص٣١.
(٢) المباركفوري: الرحيق المختوم ص٣٧، ٣٨.

٤-النبي ﷺ من الميلاد إلى المبعث

البشارات بظهور النبي الخاتم ﷺ :

ظهرت الدلائل التي بشرت بمبعث النبي الكريم ﷺ وأوان ظهوره على مر أزمنة الأنبياء والمرسلين، فعن عرباض بن سارية رضي الله عنه قال : « سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إني عبد الله وخاتم النبيين وأبي مجندل(١) في طينته وسأخبركم عن ذلك: أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى، ورؤيا أمي آمنة التي رأت..ثم تلا ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴾(٢) »(٣).

ثم تواترت الأخبار قبيل مبعثه عن أمارات ظهوره وعلامات نبوته، والتي يُستدل عليها من مقولات أهل الكتاب وأحوال بعض الجاهليين والكهان، فتخبر عائشة رضي الله عنها أن يهودياً قد سكن مكة يتجر بها، فلما كانت الليلة التي ولد فيها رسول الله ﷺ جلس في جمع من قريش، ثم قال:«ولد هذه الليلة نبي هذه الأمة الأخيرة،

بين كتفيه علامة فيها شعرات متواترات كأنهن عرف فرس»، فتعجبوا من حديثه، فلما صاروا إلى منازلهم علموا أنه قد ولد لعبد الله بن عبد المطلب غلام سموه محمداً، فانطلق القوم حتى جاؤوا اليهودي فأخبروه الخبر، ثم طلب منهم أن يأخذوه إلى بيت عبد الله ليستيقن الأمر، فلما وصلوا أخرجته آمنة لهم وكشفوا له عن ظهره « فرأى تلك الشامة فوقع اليهودي مغشياً عليه، فلما أفاق قالوا: ويلك ما لك ؟. قال:« ذهبت والله النبوة من بني إسرائيل فرحتم به يا معشر قريش أما والله ليسطون بكم سطوة يخرج خبرها من المشرق والمغرب».

كما أرشد عن ظهوره ﷺ قُس بن ساعدة الإيادي-أحد المتحنفين- في قوله: «..وأدرككم أوانه، طوبى لمن أدركه فاتبعه، وويل لمن أدركه ففارقه..»

ويحكي جبير بن مطعم رضي الله عنه أنه كان في جمع من الناس عند صنم ببوانة، قبل أن يبعث رسول الله ﷺ بشهر فنحروا جزراً، فإذا صائح يصيح:« اسمعوا إلى العجب، ذهب استراق الوحي ونرمى بالشهب، لنبي بمكة اسمه أحمد، مهاجره إلى يثرب. قال: فأمسكنا وعجبنا وخرج رسول الله ﷺ »

---

(١)أي مُلْقى في طينته. ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث ٧٠٧/١.
(٢)سورة الأحزاب: آية ٤٥، ٤٦.
(٣) الحاكم: المستدرك (٣٥٦٦)٤٥٣/٢. قال الحاكم:« هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، وقال الذهبي: صحيح.

ويذكر أبو نملة الأنصاري رضي الله عنه (١)أن يهود بني قريظة كانوا يدرسون ذكر رسول الله ﷺفي كتبهم، ويعلمونه الولدان بصفته واسمه ومهاجره إلينا « فلما ظهر رسول الله ﷺحسدوا وبغوا وقالوا: ليس به»(٢).

وفي هذا السياق أيضاً تفرق ورقة بن نوفل وزيد بن عمرو بن نفيل وعبيد الله بن جحش في البلدان بحثاً عن دين ابراهيم، فالتقى ورقة وزيد براهب في الموصل، وأخبرهما بأن الذي يلتمسون يوشك أن يظهر في أرضهما(٣).

كما ذكر سلمة بن سلامة بن وقش الأنصاري رضي الله عنه(٤)، أن جاراً من يهود في بني عبد الأشهل خرج عليهم يوماً، فذكر القيامة والبعث والحساب والميزان والجنة والنار، فقالوا له: ويحك يا فلان أو ترى هذا كائناً، أن الناس يبعثون بعد موتهم إلى دار فيها جنة ونار يجزون فيها بأعمالهم ؟ قال: نعم، فلما سألوه عن آية تصدق ما يقول، قال:« نبي مبعوث من نحو هذه البلاد، وأشار بيده إلى مكة واليمن»(٥).

وروى ابن إسحاق أن من أسباب إسلام ثعلبة بن سعية وأسيد بن سعية، وأسد بن عبيد من يهود بني هدل إخوة بني قريظة، ما أخبرهم به يهودي يقال له: ابن الهيبان قدم من الشام من صفات النبي الخاتم وأمارات ظهوره(٦).

وذهب المفسرون إلى أن قوله تعالي : ﴿وَكَانُوا۟ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ (٧)، نزلت في يهود المدينة الذين كانوا في عداء مع الأوس والخزرج، فيقولون لهم: إن نبياً الآن مبعثه قد أظل زمانه، يقتلكم قتل عاد وإرم(٨).

بل إن ابن إسحاق نفسه أورد نص بشارة النبي ﷺ لدى أهل الإنجيل، فيقول:«وقد كان فيما بلغني عما كان وضع عيسى ابن مريم فيما جاءه من الله في الإنجيل لأهل الإنجيل من صفة رسول الله ﷺ..

---

(١)أبو نملة الأنصاري، اسمه عمار بن معاذ بن زرارة الأنصاري الظّفري، شهد بدرا مع أبيه، وشهد أحداً وما بعدها، وتوفي في خلافة عبد الملك بن مروان، وقتل له ابنان يوم الحرّة. ابن حجر: الإصابة (١٠٦٥٤) ٧/ ٣٤١، ٣٤٢.
(٢)ابن سعد: الطبقات الكبرى ١/ ١٢٧.
(٣) ابن هشام: السيرة النبوية١/ ٢٣١.
(٤) سلمة بن سلامة بن وقش الأنصاريّ الأشهليّ، في عداد أهل العقبة شهد بدراً والمشاهد بعدها، تأخّر وفاته إلى سنة خمس وأربعين وهو ابن أربع وسبعين سنة بالمدينة. ابن حجر: الإصابة (٣٣٩٣) ٣/ ١٢٤، ١٢٥.
(٥) ابن هشام: السير النبوية ١/ ٢١٢.
(٦) ابن هشام: السير النبوية ١/ ٢١٣.
(٧)سورة البقرة: آية ٨٩.
(٨) الطبري: جامع البيان٢/ ٣٣٣، ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ١/ ٣٢٥.

فلو قد جاء المنحمَنا هذا الذي يرسله الله إليكم من عند الرب وروح القدس هذا الذي من عند الرب خرج فهو شهيد عليّ وأنتم أيضاً.. و(المنحمنا) بالسريانية: محمد، وهو بالرومية (البرقليطس) ﷺ»(١).

النسب الشريف:

اقتضت إرادة الله تعالى أن يصطفي النبي ﷺ من أشرف القبائل مكانة وأعلاها منزلة؛فاصطفاء الله له من قريش، لما آتاهم الله من المناقب العظام، ولاسيما بعد سُكنى مكة، وخدمة الحجيج؛ إذ كانوا أصرح ولد إسماعيل أنساباً، وأشرفهم أحساباً، وأعلاهم آداباً، وأفصحهم ألسنة، وهم الممهدون لجمع الكلمة(٢)، فعن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:« إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى هاشماً من قريش، واصطفاني من بني هاشم»(٣).

أجمع النسّابة والمؤرخون على صحة نسب النبي ﷺ إلى الجد عدنان، فهو: محمد بن عبد الله بن عبد المطلب - واسمه شَيْبَة - بن هاشم - واسمه عمرو - ابن عبد مناف - واسمه المغيرة - بن قُصَيّ - واسمه زيد - بن كِلاب بن مُرَّة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فِهْر - وهو الملقب بقريش وإليه تنتسب القبيلة - بن مالك بن النَّضْر - واسمه قيس - بن كِنَانة بن خُزَيْمَة بن مُدْرِكة - واسمه عامر - ابن إلياس بن مُضَر بن نِزَار بن مَعَدّ بن عدنان (٤).يقولَ ابن قيم(٥) تعليقاً على ذلك: « إلى هنا معلوم الصحة، ومتفق عليه بين النسّابين، ولا خلاف البتة..».

أما عن نسبه ﷺ من بعد عدنان إلى إسماعيل عليه السلام، فمختلف فيه بين النسّابة والمؤرخين، يقول عروة بن الزبير:« ما وجدنا من يعرف ما وراء عدنان ولا قحطان إلا تخرصاً »(٦)، أي كذباً وافتراءً، إلا أنه لا خلاف على أن عدنان من ولد إسماعيل عليه السلام (٧).

والناظر في الحكمة من وراء بعث النبي ﷺ شريف النسب، سيدرك أن قضية النسب أساس في تكوين الشخصية العربية، هذه الشخصية التي « كانت تستهجن مجهولي الأنساب وتحتقر الخلطاء»(٨).

(١) ابن هشام: السيرة النبوية ١/ ٣٣٣.
(٢)محمد رشيد رضا: تفسير القرآن الحكيم ٧٧/١١.
(٣) مسلم: الصحيح (٦٠٧٧) ٧/ ٥٨.
(٤) البخاري: الصحيح، باب: مبعث النبي □، ٣/ ١٣٩٨، ابن هشام: السيرة النبوية ١/١، ٢.
(٥) ابن قيم الجوزية: زاد المعاد ٧١/١.
(٦)ابن سيد الناس: عيون الأثر ١٢٦/١، الذهبي: تاريخ الإسلام ١٨/١.
(٧) ابن قيم: زاد المعاد ٧١/١.
(٨) عماد الدين خليل: دراسات في السيرة النبوية ص٤٧.

ويمكن الوقوف على هذا المعنى في قول جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه للنجاشي عندما سأله عن النبي ﷺ:«..حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه..»(١). والمقولة نفسها قالها المغيرة بن شعبة رضي الله عنه ليزدجرد ملك الفرس:« فبعث الله إلينا رجلاً معروفاً نعرف نسبه..»(٢).

ولهذا حرص النبي ﷺ أن يظل نسبه نقياً وبمنأى عن أي مطعن، لوعيه بمكانة الأنساب في الجبلة العربية، ولإدراكه سوء العاقبة على مسيرة الدعوة الإسلامية لو دنس نسبه، إذ سيودى إلي استنكاف الناس وإعراضهم عن دعوته، والشاهد على ذلك أمره ﷺ لحسان بن ثابت رضي الله عنه أن ينافح عن نسبه لما طعنت فيه قريش يوم غزوة بني قريظة«اهجوا قريشاً، فإنه أشدّ عليها من رشق النّبل»، فقال له حسان ت:« والذي بعثك بالحق لأسلنك منهم كما تسل الشعرة من العجين..»(٣).

وجدير بالذكر إن شرف نسب النبي ﷺ لا يقتصر فقط على الجانب القبلي، بل ارتقى إلى شرف النسب في الدين، وهو ما استخلصه ابن النفيس(٤) بمنطق العقل «فأشرف النسب ما كان إلى العظماء من الأنبياء، وأفضل من ذلك ما كان إلى نبي قد اتفقت الأمة على تعظيمه..». وقد توافر ذلك للنبي ﷺ من حيث انتسابه لإبراهيم عليه السلام، فمع جلالة إبراهيم عليه السلام في نفسه، اتفقت الملل على تعظيمه، ولهذا أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يتبع ملة إبراهيم ﴿ ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ (٥).

وثمة مسألة أخرى تخص نسبه ﷺ من ناحية النبوة والرسالة؛حيث يلزم أن يكون النبي ﷺ غير منتسب إلى ملة غير ملته كالنصرانية أو اليهودية مثلاً، لأنه لو بعث كذلك فعند القيام بدعوته، فسيُتهم من قِبَل أتباع هذه الملة بأنه خرج عن دينهم، فيكون عندهم مبتدعاً كافراً، حتى لو كان مقراً لدين هذه الملة، كما جرى لعيسى عليه السلام مع اليهود، فلذلك اقتضى الحال أن يكون خاتم النبيين ﷺ منسوباً إلى إسماعيل عليه السلام ليسلم من ذلك(٦).

(١) ابن هشام: السيرة النبوية١/٣٣٦.
(٢) الطبري: التاريخ ٣٩١/٢.
(٣) مسلم: الصحيح (٦٥٥٠) ١٦٤/٧.
(٤) الرسالة الكاملية ص ١٩٨،١٩٧.
(٥)سورة النحل: آية ١٢٣.
(٦) ابن النفيس: الرسالة الكاملية ص١٩٩.

زواج عبد الله من آمنة بنت وهب:

معلوم أن عبد الله بن عبد المطلب لما نجا من الذبح وفداه عبد المطلب بمائة من الإبل، جاء به والده إلى أهيب بن عبد مناف بن زهرة(١)، فزوجه بنت أخيه آمنة بنت وهب بن عبد مناف، وكان يكفلها في بيته ويقوم على رعايتها، وهي يومئذ أفضل امرأة في قريش نسباً وموضعاً. وفي ذات المجلس تزوج عبد المطلب هالة بنت أهيب، وهي التي أنجب منها حمزة بن عبد المطلب،لذا كان قريب السن من رسول الله ﷺوأخوه من الرضاعة(٢).

أما ما ورد في قصة زواج والد النبي ﷺ، من أن امرأة أرادت منه أن يقع بها لما رأت في عينيه نوراً، وإلى غير ذلك من الأساطير التي يُراد بها إضفاء هالة من المبالغة على مولده الشريف، إذ لم تثبت من طرق صحيحة معتبرة، بل هي منكرة سنداً ومتناً(٣).

مولده ﷺ:

خرج عبد الله بن عبد المطلب والد النبي ﷺ بقافلة تجارية إلى غزة، فلما فرغ من تجارته انصرف عائداً إلى مكة، فلما مرَّ بالمدينة ألَّم به المرض فتخلف لدى أخواله بني عدي بن النجار ليمرض لديهم وأقام عندهم شهراً، ثم توفي وعمره خمس وعشرون سنة، ودفن في دار أحدهم وهو الشاعر النابغة الذبياني(٤)، فحزن عليه والده عبد المطلب وإخوته وأخواته حزناً شديداً(٥)(٦)، وكان رسول الله ﷺيومئذ حمل في بطن أمه، وهذا هو الأثبت عند أهل العلم(٧).

---

(١) وفي رواية ابن إسحاق أن الذي زوجها والدها وهب بن عبد مناف وليس عمها أهيب، إلا أننا نرجح رواية الحاكم، حيث وردت مسندة فضلاً عن إتيانها بتفاصيل لم ترد في رواية ابن إسحاق غير المسندة. ابن هشام: السيرة ١٥٦/١.

(٢) الحاكم: المستدرك (٤٨٧٧) ٢١٢/٣، سكت عنه الحاكم والذهبي.

(٣)ينظر العمري: السيرة النبوية الصحيحة ٩٤/١، ٩٥.

(٤)الشاعر الجاهلي النابغة الذبياني، من بني عدي بن النجار، وكانت داره في بني عدي بن النجار، غربي مسجد الرسول □، ودفن بهذه الدار عبد الله بن عبد المطلب والد النبي □. السمهودي: وفاء الوفا ٦٥/٣، ٦٨.

(٥) ابن سعد: الطبقات ٩٩/١، الذهبي: تاريخ الإسلام ٥٠/١.

(٦) ثمة رواية أخرى وردت عن ابن شهاب ذكر فيها أن عبد المطلب بعث ابنه عبد الله يمتار تمراً من يثرب فمات بها، وكانت وفاته وهو شاب عند أخواله بني النجار. غير أن الواقدي رجح ما ورد في الرواية الأولى المثبتة في المتن، فقال:« هذا هو أثبت الأقاويل والرواية في وفاة عبد الله بن عبد المطلب وسنه عندنا ». ابن سعد: الطبقات ٩٩/١، ابن عبد البر: الاستيعاب ٣٤/١.

(٧)وذكر ابن سعد أن هناك من ذهب إلى أن عبد الله بن عبد المطلب توفي بعدما أتى على رسول الله □ ثمانية وعشرون شهراً، ويقال: سبعة أشهر، إلا أنه رجح ما ورد في المتن بقوله:« والأول أثبت أنه توفي ورسول الله □ حمل ». الطبقات ١٠٠/١.

ولد سيد المرسلين ﷺ في بيت والده(١) بشعب بني هاشم، يوم الاثنين على الصحيح، لقوله ﷺ عن ذلك اليوم:« ذاك يوم ولدت فيه..»(٢)، وذلك لأول عام من حادثة الفيل، وهذا هو المجتمع عليه(٣). وحسب تحقيق محمود باشا الفلكي(٤) فإن هذا العام يوافق عام ٥٧١من الميلاد. أما وقت مولده فكان في الثاني عشر من شهر ربيع الأول، وهو الأشهر عند أهل السيرة(٥).

لما ولدت آمنة بنت وهب النبي ﷺأرسلت إلى جده عبد المطلب تبشره، فجاء مستبشراً وأخذ النبي ﷺ ودخل به الكعبة،ودعا الله وشكر له ما أعطاه، ثم خرج به إلى أمه فدفعه إليها، والتمس لرسول الله ﷺالرضعاء (٦).

ختانه ﷺ:

أما عن ختانه فاختلف فيه، فروى ابن سعد(٧) أنه ولد في بيت مختوناً مسروراً، بينما يروي ابن عباس ب أن عبد المطلب ختن النبي ﷺ يوم سابعه وصنع له مأدبة وسماه محمدا(٨)، يقول الذهبي(٩) معلقاً على هذه الرواية:« وهذا أصح مما رواه ابن سعد».

تسميته ﷺ:

سمى الله تعالى نبيه في كتابه محمداً وأحمد؛ أما أحمد فورد ذكره في الكتب السابقة وبشر به الأنبياء من قبله، ومنع الله تعالى بحكمته أن يُسمى به أحد غيره؛ حتى لا يدخل لبس أو شك على ضعيف القلب، وكذلك محمد لم يسم به أحد من العرب ولا غيرهم، إلى أن شاع قبيل وجوده ﷺوميلاده أن نبياً يبعث اسمه محمد، فسمى قوم قليل من العرب أبناءهم بذلك رجاء أن ينال أحدهم هذا الشرف(١٠).

---

(١)وقد زار أبو عبد الله الحاكم هذا البيت وصلى بها عندما كان بمكة، فقال:«..وولد رسول الله ﷺ في الدار التي في الزقاق المعروف بزقاق المدكل بمكة، وقد صليت فيه، وهي الدار التي كانت بعد مهاجر رسول الله ﷺ في يد عقيل بن أبي طالب في أيدي ولده بعده ». الحاكم: المستدرك ٢/ ٦٥٧، ٦٥٨.

(٢) مسلم: الصحيح (٢٨٠٤) ٣/١٦٧.

(٣) خليفة بن خياط: التاريخ ٢/١

(٤)نتائج الأفهام ص٢٠ وما بعدها.

(٥) ابن هشام: السيرة ١٥٩/١، العمري: السيرة النبوية الصحيحة ٩٧/١.
ثمة آراء أخرى تتعلق بيوم مولده، منها ما ذهب أبو معشر من أنه ﷺ ولد لليلتين خلتا من شهر ربيع الأول، بينما ذهب الواقدي أنه ولد في التاسع من شهر ربيع الأول. ابن سعد: الطبقات ٩٩/١

(٦) ابن هشام: السيرة ١٦٠/١.

(٧) الطبقات ٨٢/١.

(٨)الذهبي: تاريخ الإسلام ٢٧/١، ابن قيم: زاد المعاد ٨١/١.

(٩) تاريخ الإسلام ٢٧/١

(١٠)القاضي عياض: الشفا ٢٣٠/١.

أما من سماه بعد مولده، فجده عبد المطلب هو من سماه محمداً، وقيل: لما سئل عن سبب تسميته بهذا الاسم، قال:« أردت أن يحمده الله تعالى في السماء وخلقه في الأرض»(١).

كما نسب النبي ﷺ لنفسه أسماء أخرى،فقال:«..لي خمسة أسماء، أنا محمد، وأحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب»(٢).

وثمة جانب مهم يخص مسمى النبي ﷺ؛حيث اقتضت الحكمة ألا يكون في اسمه ولا اسم أبيه، أو جده ما يحط من قدره أو ينتقص منزلته، فلا يجوز أن يكون اسمه اسم شيء محتقر، مثل: كلب، أو ثور..ونحو ذلك. ولا يجوز أن يكون اسمه مصغراً، مثل: حميد، أو سليم، أو عبيد، فإن هذا أيضاً مما تستصغر به المنزلة. ولا يُقبل أن يكون اسمه مما فيه كبرياء وزيادة تعاظم كشاهنشاه، أو شاه ملك، ونحو ذلك(٣).

رضاعه ﷺ وانتقاله إلى بادية بني سعد:

كانت ثويبة(٤) مولاة أبي لهب أول من أرضعت النبي ﷺ، أرضعته بلبن ابن لها يقال له: مسروح، وظلت على ذلك أياماً إلى أن قدمت حليمة، كما شاركه الرضاعة منها عمه حمزة وأبي سلمة بن عبد الأسد المخزومي(٥).

كان من عادة أهل الحضر من العرب التماس المراضع لأبنائهم من البادية، كي تقوى أجسامهم، وتشتد أعصابهم، وليتقنوا اللسان العربي في مهدهم(٦)، ولهذا كانت نسوة بني سعد يذهبن إلى مكة طلباً للرضعاء، ومن عجيب القدر أنه عندما جئن كعادتهن إليها في العام الذي ولد فيه الرسول ﷺ، أبَين جميعاً أن يُرضعن النبي ﷺ ليتمه وفقره، وعندما لم تجد إحداهن وهي حليمة السعدية رضيعاً غيره أخذته.

---

(١) البيهقي: دلائل النبوة ١/١١٤، رواه بإسناد مرسل كما قال ابن حجر. فتح الباري ٧/١٦٣.
(٢) البخاري: الصحيح (٣٣٣٩) ٣/ ١٢٩٩، مسلم: الصحيح (٦٢٥١) ٧/ ٨٩.
يذكر ابن قيم أن أسماءه ﷺ نوعان:
أحدهما: خاص لا يشاركه فيه غيره من الرسل كمحمد، وأحمد، والعاقب، والحاشر، والمقفي، ونبي الملحمة.
والثاني: ما يشاركه في معناه غيره من الرسل، كرسول الله، ونبيه، وعبده، والشاهد، والمبشر، والنذير، ونبي الرحمة، ونبي التوبة. زاد المعاد ١/٨٨.
(٣) ابن النفيس: الرسالة الكاملية ص ٢١٧.
(٤) مختلف في إسلامها، وكان رسول الله ﷺ يسأل عنها ويصلها وهو في مكة وبعد هجرته إلى المدينة، وكانت خديجة تكرمها أيضاً. توفيت ثويبة في العام السابع من الهجرة بعد مقدمه ﷺ من خيبر. ابن سعد: الطبقات ١/٨٧، ابن حجر: الإصابة (١٠٩٧٠) ٨/٦٠
(٥)ابن سعد: الطبقات ١/٨٧.
(٦) يقول الحلبي عن سبب إرضاع النبي ﷺ في البادية:« لأنه كان من شيم العرب وأخلاقهم إذا ولد لهم ولد يلتمسون له مرضعة في غير قبيلتهم، ليكون أنجب للولد، وأفصح له. وقيل: لأنهم كانوا يرون أنه عار على المرأة أن ترضع ولدها، أي تستقل برضاعه ». السيرة الحلبية ١/ ١٣٨.

ثم أخذت حليمة النبي ﷺ إلى رحلها، فحلت عليها وعلى أهلها دلائل الخير والبركة، تقول حليمة:« فو الله ما هو إلا أن أتيت به الرَّحل، فلما أمسيت أقبل ثدياي باللبن، حتى أرويته، وأرويت أخاه، وقام أبوه إلى شارفنا(١) تلك يلمسها، فإذا هي حافل(٢)فحلبها، فأرواني وروي، فقال: يا حليمة، تعلمين والله لقد أصبنا نسمة مباركة، ولقد أعطى الله عليها ما لم نتمن، قالت: فبتنا بخير ليلة، شباعاً، وكنا لا ننام ليلنا مع صبينا».

ولما توجهت حليمة راجعة إلى البادية وحملت النبي ﷺ على أتانها(٣)، تعجب صويحباتها من حال هذه الأتان، حيث وجدنها قد سبقت الركب بعد أن كانت هزيلة ضعيفة، ولما سألن حليمة عن سر هذا الأمر، قالت:«والله حملت عليها غلاماً مباركاً ».

كما حكت حليمة ما جرى لغنمها حين تخرج للرعي، وكان الجدب قد اشتد بهم في هذه السنة، فتقول: « ولقد كان رعاتنا يسرحون ثم يروحون، فتروح أغنام بني سعد جياعاً، وتروح غنمي بطاناً(٤)، حفلاً فنحلب، ونشرب، فيقولون: ما شأن غنم الحارث بن عبد العزى، وغنم حليمة تروح شباعًا حُفَّلاً، وتروح غنمكم جياعاً، ويلكم اسرحوا حيث تسرح غنم رعائهم، فيسرحون معهم، فما تروح إلا جياعاً كما كانت، وترجع غنمي كما كانت».

كما لحَظَت حليمة أن النبي ﷺكان يشب شباباً ما يشبُّه أحد من الغلمان، فلما استكمل النبي ﷺ عامه الثاني عادت به هي وزوجها إلى مكة، فلما التقيا بأمه قالا لها: « والله ما رأينا صبياً قط أعظم بركة منه، وإنا نتخوف عليه وباء مكة وأسقامها، فدعيه نرجع به حتى تبرئي من دائك »، فنزلت على رأيهما.

وكانت حليمة تأتي بالنبي ﷺ إلى أمه السيدة آمنه كل ستة أشهر، ثم ترجع به إلى البادية، وظل النبي ﷺ في كنفها ورعايتها إلى أن وقعت حادثة شق صدرهﷺ، وكانت الفترة التي أقامها النبي ﷺ في بني سعد قريب من خمس سنين.

---

(١) الشارف: الناقة المسنة. ابن الأثير: النهاية ١١٤٢/٢.
(٢) الحافل:كثيرة اللبن. ابن الأثير: النهاية ١٠٠٧/١.
(٣) الأتان: أنثى الحمار. ابن الأثير: النهاية ٢٦/١.
(٤) البطان: الممتلئة البطون.ابن الأثير: النهاية ٣٥٥/١.

وجدير بالذكر أن استرضاعه ﷺ في بادية بني سعد، وبقاءه فيها إلى ما يقارب الخامسة من عمره، أسهم في صياغة شخص النبي ﷺ على صعيد الإعداد اللغوي، فمقامه بينهم كان من أسباب تحليه بالفصاحة والبيان، ولهذا كان رسول اللهﷺ يفاخر برضاعه في بنى سعد فيقول:« أنا أعربكم أنا قرشي واسترضعت في بني سعد ابن بكر »(١).

لا ريب أن هذا التكوين اللغوي للنبي ﷺ في هذه المرحلة المبكرة من حياته، سيكون له انعكاسه علي الدعوة وبيانها للناس فيما بعد؛ فغير خاف أن العرب اشتهروا بالفصاحة، فهي أصل في طبائعهم، ومن ثم كان لزاماً أن يبعث النبي ﷺ ممسكاً بناصية اللغة التي برع فيها قومه وإلا عجز عن التواصل معهم، ويستلهم هذا المعنى من قول موسى عليه السلام حين خاطب ربه بقوله : ﴿ وَأَخِي هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾(٢).

حادثة شق صدرهﷺ:

في أثناء مقام النبي ﷺ ببني سعد، جرى له حادثة شق صدره وهو يلعب مع الغلمان، يقول أنس بن مالك ت:« إن رسول الله ﷺ أتاه جبريل وهو يلعب مع الغلمان فأخذه وصرعه، فشق عن قلبه، فاستخرج القلب، فقال: هذا حظ الشيطان منك، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثم لأمه، ثم أعاده إلى مكانه »، يقول أنست: كنت أرى ذلك المخيط في صدره(٣).

ولما أخبر الغلمان حليمة بما شاهدوه من هذا الحادث، ثم جاء النبي ﷺمتغير اللون لما جرى له، فزعت حليمة وأسرعت هي وزوجها بردهﷺ إلى أمه آمنة بنت وهب(٤).

أما عن حكمة شق صدرهﷺ في هذا السن المبكر، فلكي ينشأ على أكمل الأحوال من العصمة من الشيطان والتهيئة للوحي.وقد أخذت هذا المنحى الحسي؛ ليكون ذلك أقرب إلى إيمان الناس به وتصديقهم برسالته(٥).

---

(١) ابن هشام: السيرة ١٦٧/١، ابن سعد: الطبقات ٢٦/١.
(٢)سورة القصص: آية ٣٤.
(٣) مسلم: الصحيح (٤٣١) ١٠١/١، ابن حبان: الصحيح (٦٣٣٤) ٢٤٢/١٤، ابن هشام: السيرة ١/ ١٦٥.
جرى حادث شق صدره أكثر من مرة. يقول ابن حجر:« ثم وقع شق الصدر عند البعث زيادة في إكرامه ليتلقى ما يوحى إليه بقلب قوي في أكمل الأحوال من التطهير، ثم وقع شق الصدر عند إرادة العروج إلى السماء ليتأهب للمناجاة ».الفتح ٢٠٥/٧
(٤)ابن هشام: السيرة ١/ ١٦٥.
(٥)ابن حجر: الفتح ٢٠٥/٧، البوطي: فقه السيرة ص ٤٧.

وفي هذا السياق زعم بعض المستشرقين أمثال (نيكلسون) أن حالة شق الصدر التي انتابته ﷺ فى فترات متقطعة مردها إلى حالة عصبية، ويعلل (شبرنجر) سبب هذه الحالة إلى أمه آمنة التي كانت مصابة بداء الصرع. والحقيقة إن المدقق في هذا الزعم سيدرك أنه لا يرقي عن تخرصات وأوهام، حيث لا دليل عليه البتة بين روايات السيرة المتعلقة بهذا الشأن، أضف إلى ذلك إن من خصائص المصاب بالصرع نسيانه التام لما جري به عندما يتمكن منه، وهذا مالم يحدث مع رسول الله ﷺ حيث كان يدرك ما حدث له بكافة حواسه، بدليل أنه روى حادث شق صدره بكافة تفاصيله(١).

محمد ﷺ يعود إلى أمه وأمر وفاتها:

عاد محمد ﷺ إلى مكة بعد حادث شق الصدر في بادية بني سعد، فبقي عند أمه نحو سنتين، ثم عزمت السيدة آمنة على الخروج برسول الله ﷺ وهو ابن ست سنين ومعهما خادمتها أم أيمن إلى المدينة (يثرب)، لتزور أخواله بني عَديّ بن النجّار، فنزلا في دار النابغة وأقامت به عندهم شهراً، وكان رسول الله ﷺ يذكر أموراً أثناء مقامه في المدينة (يثرب)، حيث لما نظر إلى أطم بني عدي بن النجار عرفه، وقال:« كنت ألاعب أنيسة جارية من الأنصار على هذا الأطم، وكنت مع غلمان من أخوالي نطير طائراً كان يقع عليه، ونظر إلى الدار فقال: «ههنا نزلت بي أمي، وفي هذه الدار قبر أبي عبد الله بن عبد المطلب، وأحسنت العوم في بئر بني عدي بن النجار».

ثم رجعت به أمه إلى مكة وفي الطريق ألم بها مرض شديد، فلما كانوا بالأبواء(٢) توفيت آمنة بنت وهب، ولا يستبعد أن يكون النبي ﷺ وهو ابن ست سنوات شاهد لحظات موتها ودفنها. ثم رجعت به أم أيمن إلى مكة على البعيرين اللذين قدموا عليهما، وكانت حاضنته مع أمه ثم بعد أن ماتت.

يبدو أن الرسول ﷺ لم ينس ذكريات موت أمه وقبرها في الأبواء، يدل على ذلك لما مرَّﷺبهذا الموضع في عمرة الحديبية، قال: إن الله قد أذن لمحمد في زيارة قبر أمه، فأتاه رسول الله ﷺفأصلحه وبكى عنده وبكى المسلمون لبكاء رسول الله ﷺ، فلما سئل عن سبب بكائه قال: أدركتني رحمتها فبكيت.

(١)لمزيد من التفصيل ينظر عماد السيد الشربيني: رد شبهات حول عصمة النبي في ضوء السنة النبوية الشريفة، ص٢٠٥-٢١٧.

(٢)الأبواء واد من أودية الحجاز التهامية، كثير المياه والزرع،ويسمى اليوم «وادي الخريبة». يبعد عن بلدة «مستورة» شرقا ثمانية وعشرين كيلا والمسافة بين الأبواء و «رابغ» ٤٣ كيلا. شراب: المعالم االأثيرة ص١٧.

يتم النبي محمد ﷺ، والحكمة من ورائه:

يقول القاضي عياض(١):« اليتم من صفته، وهي إحدى علاماته في الكتب المتقدمة، وأخبار الأمم السالفة ». وقد أشار القرآن إلى يتمه في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾(٢). أشرنا من قبل أن مبدأ يتم النبي ﷺ كان بوفاة والده عبد الله، وهو حمل في بطن أمه، وهذا أبلغ اليتم وأعلى مراتبه، ثم تبعه وفاة آمنة فأضحى النبي ﷺبذلك يتيم الأبوين.

وثمة حكمة جليلة في أن يولد رسول الله ﷺ وينشأ يتيماً؛ ذلك أن مكابدة اليتم تورث في النفس رقة القلب ولين الجانب، وهو ما تجسد في سلوك النبي ﷺ وأفعاله، حيث كان ممتلئاً بالعواطف الرحيمة والمعاني الإنسانية النبيلة مع الفقراء والضعفاء واليتامى بل مع الحيوان،ومن شواهد ذلك بعد النبوة أنه كانﷺ إذا خيّر بين أمرين اختار أيسرهما رأفة ورحمة بالناس، وكان لا ينتقم لنفسه إلا إذا انتهكت حرمات الله

ومن جانب آخر يورث اليتم في النفس علو الهمة ومجافاة الدعة، التي أحياناً ما تستحوذ على نفوس الأبناء جرّاء إسراف الأبوين في تدليلهم، ومن ثم حين يقصد اليتيم أمراً صعباً، فلا يركن إلى الأرض أو يعرض عنه تكاسلاً، بل ينهض به حتى يتمه، وهذا من الخصال التي لا غنى لأصحاب الرسالات أن يتمثلوها خاصة في أحوال النوازل والأمور الجسام.

انتقال كفالة محمد ﷺ إلى جده عبد المطلب:

ضمَّ عبد المطلب رسول الله ﷺ إليه بعد وفاة أمه، وكان يحنو عليه أكثر ما يحنو على ولده، ومن شواهد ذلك أنه لما جلس ﷺ على فراش جده عبد المطلب، يأخذه أعمامه ليؤخروه عنه، فيقول لهم عبد المطلب:«دعوا ابني هذا فو الله إن له لشأناً، ثم يجلسه معه على فراشه، ويمسح ظهره بيده ويسره ما يراه يصنع»

ومن دلائل عناية عبد المطلب أيضاً بالنبي ﷺ، أن كان لا يأكل طعاماً إلا قال: عليَّ بابني فيُؤتى به إليه ومنها أنه أرسله في طلب إبل له فأبطأ عليه، فلما جاء النبي ﷺ ومعه الإبل اعتنقه، وقال له:«يا بني لقد جزعت عليك جزعاً لم أجزعه على شيء قط، والله لا أبعثك في حاجة أبداً لا تفارقني بعد هذا أبداً»(٣).

---

(١) الشفا ٢٤٩/٢.
(٢) سورةالضحى: آية ٦.
(٣) الحاكم : المستدرك (٤١٨٤) ٢/ ٦٥٩. قال عنه الحاكم : هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه،ابن سعد: الطبقات ٩١/١.

ولما توفي عبد المطلب بكى النبي ﷺ حزناً عليه، ولما سئل ﷺأتذكر موت عبد المطلب ؟، قال: «نعم، أنا يومئذ بن ثماني سنين». وتقول أم أيمن:« رأيت رسول ﷺ يومئذ يبكي خلف سرير عبد المطلب»(١).

موت عبد المطلب وانتقال كفالته ﷺ إلى عمه أبي طالب:

انتقلت كفالة النبي ﷺ بعد وفاة جده إلى عمّه أبي طالب، وهو ابن ثمان سنين(٢) على الراجح من الأقوال(٣)، وكان عبد المطلب يوصيه خيراً بالنبي ﷺ، وأوعز إليه أمر رعايته؛ لأن عبد الله أبا رسول الله ﷺ وأبا طالب أخوان لأب وأم،وأمهما فاطمة بنت عمرو بن عائذ من بني مخزوم(٤).

كان أبو طالب يحب النبي ﷺ حباً جماً لا يحبه لأحد من ولده، دائم الرفق به، حتى أنه لا ينام إلاّ إلى جانبه ﷺ،ويخصه بأحسن الطعام، وإذا خرج في سفر اصطحبه معه(٥). يقول ابن سعد(٦):« وصب به أبو طالب صبابة لم يصب مثلها بشيء قط».

عمل النبي ﷺ برعي الغنم:

كان أول ما بدأ به النبي ﷺ من العمل رعي الغنم، وتشير بعض الروايات إلى أن النبي ﷺ رعاها مبكراً في صباه ببادية بني سعد، يقول الواقدي:«ولما بلغ أربع سنين كان يغدو مع أخيه وأخته في البَهْم (صغير الضأن)..»(٧).

ويروي النبي ﷺ نفسه عن رعيه للغنم في بني سعد فيقول:« كانت حاضنتي من بني سعد بن بكر، فانطلقت أنا وابن لها في بهم لنا ولم نأخذ معنا زاداً، فقلت: يا أخي اذهب فأتنا بزاد من عند أمنا فانطلق أخي وكنت عند البهم..»(٨).

(١) ابن سعد: الطبقات ٩٥/١.
(٢) الصالحي: سبيل الهدى ١٣٥/٢، ابن هشام: السيرة ١٦٩/١ .
(٣) الحلبي: السيرة ١٦٤/١.
(٤) ابن هشام: السيرة ١٧٩/١.
(٥) ابن هشام: السيرة ١٨٠/١، ابن سعد: الطبقات ٩٦/١.
(٦) الطبقات ٩٦/١.
(٧) ابن سعد: الطبقات ٩٠/١.
(٨) الحاكم: المستدرك، قال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، وقال الذهبي: على شرط مسلم، (٤٢٣٠) ٢/ ٦٧٣.

ويتماشى مع ذلك ما رواه ابن عباس ب من حديث النبي ﷺ وهو طفل إلى حليمة ل في هذا الصدد، فتقول:« قال لي يوماً: يا أماه مالي لا أرى إخوتي بالنهار. قالت: يرعون بهماً غنماً لنا فيروحون من الليل إلى الليل. فقال: ابعثيني معهم. فكان ﷺ يخرج مسروراً ويعود مسروراً..» (١).

كما رعى النبي ﷺ الغنم في مكة، وهو في الثانية عشرة، وقيل: في التاسعة من عمره، وقال ﷺ عن ذلك:« كنت أرعاها على قراريط(٢)لأهل مكة»

كان وراء امتهان النبي ﷺلرعي الغنم حكم بليغة، حيث أسهم ذلك في بناء شخصيته وتكوينه النفسي؛ فرعي الغنم أكسبه فضيلة التمرن على الصبر والحلم بأمته والشفقة بها، وذلك حين يجمعهم حال تفرقهم، ويدفع عنهم ما يتربص بهم من أعداء، كما يدفع عن الغنم ما يترصد لهم من سباع وغير ذلك(٣). كما أكسبته هذه المهنة مهارة التمرس على سياسة العباد؛ فرعاة الغنم يحصل لهم ذلك في «اختيار الكلأ لها، وإيرادها أفضل مواردها، واختيار المسرح والمراح لها، وجبر كسيرها، والرفق بضعيفها، (٤).فضلاً عن ذلك أن الرجل إذا استرعى الغنم التي هي أضعف البهائم، سكن قلبه الرأفة واللطف تعطفاً، فإذا انتقل من ذلك إلى رعاية الخلق،فيكون قد هذَّب في نفسه حدة الطبع والظلم الغريزي، فيكون في أعدل الأحوال.

رحلة النبي ﷺ مع عمه أبي طالب إلى الشام:

لما بلغ النبي ﷺ اثنتي عشرة سنة، وقيل: تسع سنين، وقيل: عشر سنين(٥)، خرج به عمُه أبو طالب إلى الشام، وفي هذه الرحلة رآه بَحِيرى الراهب، الذي تعرض إليهم ودعاهم إلى الطعام، فتعرّف على أمارات نبوته ﷺ من خلال صفاته وأحواله، مثل: يتيمه، وخاتم النبوة الذي بين كتفيه، كما رأى الغمامة تظله وتميل عليه عند نومه، عندئذ أمر عمه ألا يَقْدم به إلى الشام خوفاً عليه من اليهود.

---

(١)البيهقي: دلائل النبوة ١٤٠/١، الصالحي: سبل الهدى ٣٨٨/١.
(٢)القيراط:مختلف في تفسير معناه، فقيل هو اسم موضع، وقيل: هو جزء من أربعة وعشرين جزأ. ابن حجر: الفتح ١٧٢/١، معجم لغة الفقهاء ص٢٧٨.
(٣) ابن حجر: فتح الباري ٤٤١/٤.
(٤)ابن بطال: شرح صحيح البخاري ٣٨٦/٦.
(٥) ابن سيد الناس: عيون الأثر ٥٢/١، ابن قيم: زاد المعاد ٧٦/١.

وقد حاول بعض المستشرقين أن يتخذ من هذه القصة دليلاً على تلقي النبي ﷺ علم أهل الكتاب عن هذا الراهب(١)، ولكن الناظر بعين الإنصاف سوف لا يجدفي هذه الرواية ما يشيرإلى هذه العلاقة، فضلاً عن أنه من غير المقبول عقلاً أن يستوعب طفل في عمر التاسعة أو العاشرة أو الثانية عشر من معارف التوراة في هذه المدة القصيرة، هذا فضلاً عن حاجز اللغة؛ إذ لم يكن وجد في هذه الفترة توراة أو إنجيل كتب باللغة العربية(٢).

اشتغال النبي ﷺ بالتجارة:

بعد أن عمل النبي ﷺ برعي الغنم اشتغل بالتجارة، فخرج في صباه في تجارة إلى اليمن بصحبة عمه الزبير بن عبد المطلب(٣)، وكذا مع عمه أبي طالب إلى الشام حسبما بينا آنفاً، ثم زاولها في شبابه وتمرس فيها، وكان من شركائه في التجارة قيس بن السائب المخزومي ت(٤)، يقول قيس:« وكان رسول الله ﷺشريكاً لي في الجاهلية، فخير شريك لا يماري ولا يشاري(٥)»(٦).

وعندما بلغ النبي ﷺ الخامسة والعشرين من عمره، خرج تاجراً إلى الشام في مال خديجة ل، يقول ابن إسحاق(٧):« فلما بلغها عن رسول الله ﷺ ما بلغها من صدق حديثه، وعظم أمانته وكرم أخلاقه، بعثت إليه فعرضت عليه أن يخرج في مال لها إلى الشام تاجراً، وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره من التجار مع غلام لها يقال له: ميسرة، فقبله..».

أما ما يتعلق بالحكمة من وراء اشتغال النبي ﷺ بالتجارة،فكان لها أبلغ الأثر في نمو خبراته واتساع مداركه، حيث نمَّت لديه القدرة على تحمل المسؤولية، فضلاً عن كونها معيناً له ﷺ على فهم طبائع الناس وفقه معادنهم(٨).

---

(١) جوستاف لوبون: حضارة العرب ص١٠٢، منتجمري واط: محمد في مكة ص٧٥.
(٢) محمد عبد الله دراز: مدخل إلى القرآن الكريم ص١٣٥، العمري: السيرة النبوية الصحيحة ١/١١٠، ١١١.
(٣)ابن الجوزي: الوفا بتعريف فضائل المصطفى ص٥٤، الصالحي: سبيل الهدى ٢/١٣٩.
(٤)قيس بن السائبن عويمر المخزومي، قال ابن حبّان: له صحبة، كان شريك رسول الله في الجاهلية، وهو أحد الرجلين اللذين أجارتهما أمّ هانئ في فتح مكة.ابن حجر: الإصابة (٧١٩١) ٥/٣٨٥.
(٥)أي لا يُشاغب ولا يُخالِف. ابن الأثير: النهاية ٢/٢٤٤.
(٦) الطبراني: المعجم الكبير (٩٢٩) ١٨/٣٦٣.قال الهيثمي: رجاله ثقات (٤٩٥٣) ٣/٣٨٦.
(٧)السير والمغازي ص٨١، ابن هشام: السيرة ١/١٨٧.
(٨) فقه السيرة ص٦٨.

هذا إضافة إلى أن التجارة أتاحت للنبي ﷺ أن يكون عالماً بألسنة العرب وغيرهم عارفاً بلهجاتهم، « فكان يخاطب كل أمة منها بلسانها، ويحاورها بلغتها، ويباريها في منزع بلاغتها، حتى كان كثير من أصحابه يسألونه في غير موطن عن شرح كلامه»(١).

يدل على ذلك قول عطية بن عروة السعدي ت(٢):« فكلمنا رسول الله ﷺ بلغتنا »(٣). كما كان ﷺ على معرفة بلهجات أهل اليمن،ويظهر ذلك في كتابه لوائل ابن حجر(٤) بلسان أهل اليمن:« إلى الأقيال العباهلة والأوراع المشابيب(٥)..»(٦). بل تشير بعض الروايات إلى أن النبي ﷺ كان على صلة باللغة الحبشية، يدل على هذا الأمر قوله لأم خالد بنت خالد لما كساها خميصة:« سناه سناه»(٧). وتعني بالحبشية حسنة(٨).

إذن فالتجارة أسهمت في بناء شخصية النبي ﷺ، حيث جعلته مؤهلاً لإنجاح عملية التواصل الدعوي مع أصحاب اللهجات المختلفة في جزيرة العرب.

أخلاق النبي ﷺ قبل البعثة وحفظ الله تعالى إياه منذ صباه:

كان النبي ﷺ مثالاً فريداً في مكارم الأخلاق ومحاسن الخصال، وقد حاطته العناية الإلهية بالحفظ والرعاية، حيث طهّره الله تعالى من دنس الجاهلية ومن كل عَيب، يقول ابن إسحاق(٩):« فشب رسول الله ﷺ والله تعالى يكلؤه ويحفظه ويحوطه من أقذار الجاهلية لما يريد به من كرامته ورسالته، حتى بلغ أن كان أفضل قومه مروءة، وأحسنهم خلقاً، وأكرمهم حسباً، وأحسنهم جواراً، وأعظمهم حلماً، وأصدقهم حديثاً، وأعظمهم أمانة، وأبعدهم من الفحش والأخلاق التي تدنس الرجال تنزهاً وتكرماً، حتى ما سمي في قومه إلا الأمين لما جمع الله فيه من الأمور الصالحة..».

---

(١) القاضي عياض: الشفا ٧٠/١.
(٢) عطية بن عروة، من بني سعد بن بكر، صحابي معروف، نزل الشام، كان ممن كلّم النبيّ ﷺ في سبي هوازن. ابن حجر: الإصابة (٥٥٨٩) ٤٢١/٤.
(٣) القاضي عياض:الشفا ٧٧/١.
(٤) وائل بن حجر الحضرميّ، كان أبوه من أقيال اليمن، ووفد هو على النبيّ ﷺ، واستقطعه أرضاً فأقطعه إياها، وبعث معه معاوية ليتسلمها، مات في خلافة معاوية. ابن حجر: الإصابة (٩١٢٠) ٤٦٦/٦.
(٥)أي السادة والملوك حسان الوجوه. ابن الأثير: النهاية١٠٧٤/٢.
(٦) القاضي عياض: الشفا ٧٤/١.
(٧)البخاري: الصحيح (٣٦٦١) ٣/ ١٧٠٤.
(٨)ابن الأثير: النهاية ١٠٢٤/٢.
(٩)السير والمغازي ص٨٧، ابن هشام: السيرة ١٨٤/١.

وبدأت هذه العناية منذ صباهﷺ، فحين كان ﷺ ينقل حجارة مع غلمان من قريش للعب بها،فتعرى لما جعل إزاره على رقبته، فإذا لاكم يلكمه لكمة شديدة، ويقول له: شد عليك إزارك (١).

ومن دلائل ذلك أنه ﷺ لم يعظّم لقريش صنماً قط، بل عصمه الله تعالى أن يحضر لهم مَشهداً يفسد به أخلاقه، فلما أراد أن يسمر(٢)كما يسمر الفتيان بمكة فذهب ﷺ إلى إحدى دور مكة كان بها عرساً، فسمع غناء وصوت دفوف وزمر، فغلبه النوم لم يوقظه إلا حر الشمس، وعندما همَّ بذلك مرة أخرى جرى له ما جرى من قبل، ثم قال ﷺ:« فو الله ما هممت بعدها أبداً بسوء مما يعمل أهل الجاهلية حتى أكرمني الله تعالى بنبوته»(٣).

ومن جميل أخلاقه ﷺ قبل بعثته، ما وصفته به خديجة ل في قولها:«إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل(٤)، وتكسب المعدوم(٥)، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق(٦)»(٧).

كما ورد في بعض الروايات أن أهل مكة وجده عبد المطلب، كانوا يستسقون بوجه النبي ﷺ لما يصيبهم الجدب والقحط، وأشار أبو طالب إلى ذلك وفي جانب المعاملات استفاضت شهرته ﷺ في مكة وما حولها بكونه «الصادق الأمين». وقد حاجهم النبي ﷺ بهذه الخلة في مبدأ دعوة قريش للإسلام، فشهدوا له جميعا بذلك، حيث قال لهم:« أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً تخرج بسفح هذا الجبل أكنتم مصدقي ؟، قالوا: ما جربنا عليك كذبا قط »(٨).

ومن عجب أنهم ظلوا مقرين بأمانته ﷺحتى بعد أن أعلن دعوته، وتعاظم عداؤهم له، وأجمعوا على قتله قبل أن يهاجر إلى المدينة، فقد أمر علياً تأن يتخلف بعده بمكة ليؤدي عنه الودائع والأمانات التي كانت عنده للناس، فـ« ليس بمكة أحد عنده شيء يخشى عليه إلا وضعه عنده لما يعلم من صدقه وأمانته ﷺ»(٩).

---

(١) ابن هشام: السيرة ١/١٨٤، الصالحي: سبيل الهدى ٢/١٤٧.
(٢)وأصل السمر: الحديث ليلاً . ابن الأثير: النهاية ٢/٩٩٤.
(٣) الحاكم: المستدرك (٧٦١٩) ٤/٢٧٣، يقول الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، وقال الذهبي في التلخيص، ابن إسحاق: السيرة النبوية، الحلبي: السيرة ١/١٧٨.
(٤) أي تعطي الفقير الذي لا مال عنده. فتح الباري ١/٢٤.
(٥) أي تعين من لا يقدر على العمل و الكسب.فتح الباري ١/١٨٠.
(٦)أي تُعين الناس فيما يصيبهم من خير أو شر. شرح النووي على صحيح مسلم ٢/٢٠٢.
(٧)البخاري: الصحيح (٣) ١/٤، مسلم: الصحيح (٤٢٢) ١/٩٧، واللفظ لمسلم.
(٨) البخاري: الصحيح (٤٤٩٢) ٤/١٧٨٧، مسلم: الصحيح (٥٢٩) ١/١٣٤.
(٩) ابن هشام: السيرة ١/٤٨٥.

لا ريب أن ثمة حكمة جليلة وراء تعهد الله تعالى بحفظ نبيه من أن يقع في سوءات الجاهلية، وهو أن تصاغ جبلته على الخصال الحميدة وتتشبع فطرته بالخلق الكريم، ومن ثم يرتقي مقاماً عليّاً في نفوس قومه، مما سيكون لذلك جليل الأثر في الإقبال على دعوته.

مشاركة الرسول ﷺ في الأحداث الكبرى قبل البعثة:

لم ينعزل النبي ﷺقبل بعثته عن واقع مجتمعه ووقائع عصره، بل تفاعل معها وشارك في صنع أحداثها، وهو ما أكسبه جملة من المهارات والخبرات على صعيد القيادة وإدارة الأزمات، وقد تمثلت هذه الأحداث في: حرب الفِجَار ،وحلف الفضول، وبناء الكعبة وإيداع الحجر الأسود في موضعه.

حرب الفِجَار:

عندما بلغ العشرين من عمره، وقيل: أربع عشرة أو خمس عشرة، وقعت «حرب الفجار» وكانت بعد حادثة الفيل بعشرين سنة، وجرت أحداثها في عكاظ بين قبائل قريش وكنانة من جهة وقبائل قيس عيلان من جهة أخرى، وسببها: أن أحد بني كنانة، واسمه البَرَّاض بن قيس، اغتال رجل من قيس عيلان يدعى عروة الرّحال، وكان ذلك في الأشهر الحرم، ولهذا سمي بيوم الفِجار.

التقى الطرفان وكان الظفر في أول النهار لقيس على كنانة، حتى إذا كان في وسط النهار كادت الدائرة تدور على قيس، إلا أن البعض من قريش سعوا إلى الصلح على أن يحصوا قتلى الفريقين، فمن وجد قتلاه أكثر أخذ دية الزائد. فتصالحوا على ذلك، ووضعوا الحرب، وأنهوا ما كان بينهم من العداوة والشر. وقد حضر هذه الحرب رسول الله ﷺ، وكان ينبل على عمومته؛ أي يجهز لهم النبل للرمي.وقيل: أنه كان يرد عنهم نبل عدوهم إذا رموهم بها، ولا مانع من أن يكون النبي ﷺ مارس العملين معاً.

حلف الفضول:

بعد حرب الفجار ،وقع «حلف الفضول» في ذي القعدة قبل المبعث بعشرين سنة منصرف قريش من الفجار، ولرسول الله ﷺيومئذ عشرون عاماً. وكان أكرم حلف سُمع به وأشرفه في العرب، وقيل: سمي بحلف الفضول، لأنهم أخرجوا فضول أموالهم للأضياف(١)، وعقدت هذا الحلف خمسة بطون من قبائل قريش هم: بنو هاشم، وبنو المطلب، وأسد بن عبد العزى، وزهرة بن كلاب، وتيم بن مرة(٢).

---

(١) الصالحي: سبيل الهدى ١٥٤/٢، ١٥٥.
(٢) ابن هشام: السيرة ١٣٣/١.

كان أول من دعا إليه الزبير بن عبدالمطلب، وسبب إقامة هذا الحلف أن رجلاً من زَبيد قدم مكة ببضاعة، واشتراها منه العاص بن وائل السهمي، ولم يعطه حقه، فاستعدى عليه الأحلاف عبد الدار ومخزوماً، وجمحاً وسهماً وعدِياً فلم يكترثوا له، فصعد جبل أبي قُبَيْس، ونادى بأشعار يصف فيها ما وقع عليه من ظلم، وعندما سمعه الزبير بن عبدالمطلب قال: ما لهذا مترك ؟، فاجتمع لذلك الذين مضى ذكرهم في حلف الفضول، فعقدوا الحلف في دار عبد الله بن جُدْعان التيمي؛ لسنِّه وشرفه، فتعاهدوا على ألا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها وغيرهم من سائر الناس، إلا نصروه على من ظلمه حتى ترد عليه مظلمته، ثم قاموا إلى العاص بن وائل فانتزعوا منه حق الزبيدي(١).

وقد شهد رسول الله ﷺ هذا الحلف وأثنى عليه بعد أن أكرمه الله بالرسالة: «لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحب أن لي به حمر النعم، ولو أُدْعى به في الإسلام لأجبت»(٢).

حادث بناء الكعبة والخلاف بشأن الحجر الأسود:

مما اشتهر به النبي ﷺ أن أهل الخصومة كانوا يحتكمون إليه في الجاهلية، لعدله وحكمته ولصواب رأيه، فعن الربيع بن خثيم قال:« كان يُتَحاكم إلى رسول الله ﷺفي الجاهلية قبل الإسلام»(٣).

ومن شواهد ذلك أنه ﷺلما بلغ الخامسة والثلاثين من عمره، اجتمعت قريش لبنيان الكعبة لمّا تصدع بناؤها جراء سيل جارف، فخافوا أن ينهدم البيت، فأجمعوا على هدمه ليقيموا بنيانه من جديد، ولما وصل البنيان إلى موضع الحجر الأسود أراد كل رئيس أن ينال شرف وضعه في موضعه، واستمر الشجار بينهم أربعة أيام أو خمسة، إلا أن أبا أمية بن المغيرة المخزومي، أشار عليهم أن يحكِّموا أول رجل يدخل عليهم، فقبلوا ذلك واتفقوا عليه.

شاء قدر الله أن يكون أول الداخلين عليهم هو رسول الله ﷺ،فلما رأوه هتفوا وقالوا: هذا الأمين رضيناه، هذا محمد. فلما انتهى إليهم، وأخبروه الخبر، وضع رسول الله ﷺ رداءه وبسطه في الأرض ثم وضع فيه الحجر الأسود، ثم قال: لتأخذ كل قبيلة بطرف من الثوب، ثمَ ارفعوه جميعاً ففعلوا، حتى إذا بلغوا به موضعه، وضعه رسول الله ﷺ بيده الطاهرة ثم بنوا عليه(٤).

---

(١) الصالحي: سبيل الهدى ١٥٤/٢، الحلبي: السيرة ١٨٨/١-١٩٠.
(٢) ابن هشام: السيرة النبوية ١٣٤/١، ابن سعد: الطبقات ١٠٣/١.
(٣)ابن سعد: الطبقات ١٢٥/١، الصالحي: سبيل الهدى ١٤٧/٢.
(٤) ابن هشام: السيرة ١٩٦/١/١٩٨، ابن سعد: الطبقات ١١٦/١.

ولاشك في أن هذا التفاعل من قبل النبي ﷺحيال قضايا مجتمعه ومشكلاته، كان له أثره التربوي الكبير في تكوين شخصيته، حيث رسخت في نفسه ﷺ فضيلة الصبر وقوة الاحتمال، وسرعة الاستجابة والحركة، كما مكنه ذلك من الوقوف على أمراض مجتمعه ومواطن الخلل فيه(١).

كما أكسبته هذه الأحداث عديد من القيم والخبرات والمهارات المهمة، كالوقوف في وجه الظلم، ونصرة الحق، والقدرة على إدارة الأزمات واستيعاب المشكلات، وهو ما سينعكس إيجاباً على مسيرة الدعوة بعد ذلك.

زواجه ﷺ من خديجة:

تعد خديجة ل من أعلام نساء العرب قبل الإسلام وبعده، فهي أفضل نساء قومها نسباً ومالاً وعقلاً، وكانت تدعى في الجاهلية بـ«الطاهرة»(٢)،ولقبت أيضاً بـ«سيدة نساء قريش»(٣).

تزوجت خديجة ل قبل النبي ﷺ برجل من سادات قريش يدعى أبا هالة، واسمه هند بن النباش من بني تميم، وكان ذا شرف في قومه، نزل مكة فحالف بها بني عبد الدار بن قصي، وكانت قريش تزوج حليفهم، فولدت خديجة ل له رجلان، يقال لأحدهما: هند، والآخر: هالة. ثم تزوجت بعد وفاته عتيق بن عابد ابن عبد الله بن عمر المخزومي، فولدت له بنتاً يقال: لها هند، وكانت خديجة لتكنى«أم هند»(٤).

امتهنت خديجة ل العمل بالتجارة قبل الإسلام، ولما بلغها من صدق النبي ﷺ وعظم أمانته، عرضت عليه أن يخرج تاجراً في مال لها إلى الشام، فقبلﷺ وكان عمره خمساً وعشرون سنة، فلما رجع إلى مكة ورأت خديجة ل في مالها من الأمانة والبركة ما لم تر قبل هذا،حيث أخبرها غلامها ميسرة بما رأى فيه ﷺ من صفات الصدق والأمانة والشمائل الكريمة، هنا وجدت ضالتها المنشودة فرغبت في الزواج منه،وكان السادات والرؤساء من قريش يحرصون على الزواج منها ولكنها تأبى(٥).

(١) الطيب برغوث: منهج النبي ﷺ في حماية الدعوة ص ٢٠٩.
(٢) ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق ١٣١/٣، الحلبي: السيرة ١٩٩/١.
(٣)ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق ١٨/٦٣، السهيلي: الروض الأنف١٥٧/٢.
(٤) ابن سعد: الطبقات ١٥/٨، ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق ١٩٣/٣.
(٥) ابن سعد: الطبقات ١٣٠/١، ابن هشام: السيرة ١٨٧/١.

تعد خديجة ل من أقرب نسائه ﷺإليه نسباً، ولم يتزوج من ذرية قصي غيرها إلا أم حبيبة بنت أبي سفيان(١). أما عن توقيت زواجها من النبي ﷺ فكان بعد رجوعه من الشام بشهرين، أو خمسة عشر يوماً(٢).

وروت صديقتها نفيسة بنت أمُيَة(٣) تفاصيل قصة هذا الزواج، حيث أسرّت لها خديجة ل برغبتها في الزواج من النبي ﷺ وطلبت منها التوسط لإتمام هذا الأمر، تقول نفيسة: «فأرسلتها خفية إليه ﷺ بعد أن رجع في عيرها من الشام، فأخذت ترغبه في الزواج منها، فقبل النبي ﷺ، ثم ذهبت إلى خديجة أخبرته بذلك، فأرسلت إلى عمها عمرو بن أسد أن يأت ليزوجها فحضر، وأرسلت نفيسة إلى النبي ﷺ أن يقدم في موعد محدد، فجاء في رفقة عمومته وتم الزواج(٤).

وفي هذا الصدد روي عن ابن عباس ب أن والد خديجة ل عارض إتمام هذا الزواج، لكونه يرى أن النبي ﷺ ليس كفؤاً للزواج من ابنته، فصنعت خديجة ل طعاماً وشراباً ودعت له أباها خويلد وجمع من قريش، فأكلوا وشربوا حتى سكروا، فاستغلت الحال التي عليها أبيها وطلبت منه أن يزوجها من النبي ﷺ فزوّجها، فلما أفاق من سكره قالت له:« زوجتني من محمد بن عبد الله، قال: أنا أزوّج يتيم أبي طالب ؟ لا لعمري، فقالت له خديجة: ألا تستحي، تريد أن تسفه نفسك عند قريش، تخبرهم أنك كنت سكران ؟، فلم تزل به حتى رضي»(٥).

والحقيقة إن هذا الخبر باطل ومردود على صعيد السند(٦)، أما المتن فيأباه ما كانت عليه خديجة ل من كريم الشمائل، فهي من تلقبت في الجاهلية بـ«الطاهرة»، و«سيدة نساء قريش». أضف إلى ذلك ما ذكره الواقدي بشأن تزويج خويلد لخديجة، حيث قال:« فهذا كله عندنا غلط ووهل. والثبت عندنا المحفوظ عن أهل العلم أن أباها خويلد بن أسد مات قبل الفجار. وأن عمها عمرو بن أسد زوجها رسول الله ﷺ»(٧).

---

(١) فتح الباري ١٣٤/٧.
(٢) الحلبي: السيرة ٢٠٣/١.
(٣)نفيسة بنت أمية التميمية أخت الصحابي يعلى بن أمية، لها صحبة ورواية عن النبي ، وهي التي مشت بين خديجة والنبيّ حتى تزوجها. ابن عبد البر: الاستيعاب ١٩١٩/٤، ابن حجر: الإصابة (١١٨٢٠) ٣٣٦/٨.
(٤) ابن سعد: الطبقات ١٠٥/١.
(٥)أحمد: المسند (٢٨٥١) ٣١٢/١، الطبراني: المعجم الكبير (١٢٨٧٠) ١٨٦/١٢، البيهقي: دلائل النبوة ٧٣/٢، الحلبي: السيرة ٢٢٣/١.
(٦)حكم أحمد شاكر، وشعيب الأرنؤوط على إسناد الرواية بالضعف. ينظر: أحمد: المسند (٢٨٥٢) ٢٦٣/٣، (٢٨٥١) ٣١٢/١.
(٧) ابن سعد: الطبقات ١٠٦/١.

تعد خديجة أول امرأة تزوجها رسول الله ﷺ، ولم يتزوج عليها غيرها حتى ماتت(١). واختلف علماء السيرة في تحديد سنِّها لما تزوجت النبيﷺ(٢)، والمشهور أن عمرها إذ ذاك أربعين سنة، ويؤكد الواقدي ذلك بقوله:« هذا المجمع عليه عندنا»(٣).

كما تشير الروايات إلى أن الرسول الله ﷺ أحب خديجة ل حباً جماً، حتى قال عن ذلك:«..وكنت لها عاشقاً»(٤).وهذا يدحض ما ذهب إليه (رودينسون) من أن النبي ﷺ لم تكن له ميول عاطفية نحو خديجة ل، وإنما تزوجها طمعاً في مالها(٥).

أما عن أبناء النبي ﷺ فالذكور: القاسم وعبد الله، فأما القاسم فهو أكبر ولده، وبه كان يكنى النبي ﷺ، وهو أول ميت من ولده مات بمكة. وأما عبد الله فولد بعد النبوة ومات صغيراً بمكة، ويقال له: الطيب أو الطاهر(٦). أما أبناؤه من الإناث؛ فأم كلثوم،وفاطمة، ورقية، وزينب. وجميع أبناءه ﷺ أنجبهم من خديجة ل عدا ابنه إبراهيم ابن مارية القبطية ل.

وكانت خديجة ل إذا ولدت ولداً دفعته لمن يرضعه، فلما ولدت فاطمة لم ترضعها غيرها(٧). وقد مات الذكور صغاراً باتفاق، وأما بناته فأدركن البعثة ودخلن في الإسلام وهاجرن معه ﷺ(٨)(٩)، وجميعهن أدركتهن الوفاة في حياته ﷺ سوى فاطمة ل، فقد تأخرت وفاتها بعده ستة أشهر، ثم لحقت به(١٠).

(١) ابن قيم: زاد المعاد ٧٧/١.
(٢) وقيل: خمس وأربعين سنة، وقيل: ثلاثين، وقيل: ثمان وعشرين، وقيل: خمس وثلاثين، وقيل: خمس وعشرين. الحلبي: السيرة ١/ ٢٠٤.
(٣) ابن حجر: الإصابة ١٠١/٨.
(٤) الحاكم: المستدرك (٤٨٤٠) ٢٠١/٣، سكت عنه الحاكم، والذهبي.
(٥)محمد أبو ليلة: محمد بين الحقيقة والافتراء في الرد على المستشرق ماكسيم رودنيسون ص٧٥.
(٦) ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق ١٣١/٣.
(٧) ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق ١٢٨/٣.
(٨) ابن كثير: البداية والنهاية ٣٦٠/٢.
(٩) ابن حجر: فتح الباري ١٣٧/٧.
(١٠) ابن هشام: السيرة ١٨٩/١، ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق ١٣١/٣.

إرهاصات النبوة قبيل البعثة:

ظهرت بعض العلامات الدالة على نبوته قبل البعثة، فأول ما بدئ به رسول الله ﷺ الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح(١). وحكمة أن تكون الرؤيا الصادقة أول علامات الوحي وأماراته؛ لئلا يفجأه جبريل عليه السلام ويأتيه بصريح النبوة بغتة، فلا يقوى بصفاته البشريةعلى تحملها(٢).

ثم حبب إليه الخلاء فكان يلحق بغار حراء فيتحنث(٣) فيه الليالي ذوات العدد قبل أن يرجع إلى أهله ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود بمثلها حتى فجأه الحق وهو في غار حراء(٤).

وثمة وقفة مع هذا الحدث لما يحمله من حكمة بليغةتُستلهم على ضوء قوله تعالى: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴾ (٥)؛فحاشا أن يكون مقصود الآية أن النبي ﷺ شابه شيء من ضلال الشرك والوثنية أو سوءات الجاهلية، فقد بينا آنفاً كيف حفظه الله تعالى من الوقوع في ذلك، ولكن المعنى المراد منها هو أن النبي ﷺ ألمت به حالة من الاضطراب وماجت نفسه بتساؤلات حائرة، لم يجد في الفضاء المكي من يجيبه عنها،فيهدأ فؤاده وتسكن نفسه.

هنا اقتضت حكمة الله وعنايته بنبيه ﷺ أن يحبب إليه الخلاء،فينعزل بذلك عن محيطه الاجتماعي بما يحويه من ضلالات الفكر وفساد المعتقد وسيىء العادات، ومن ثم تصفو نفسه وتسمو روحه لتصبح مؤهلة موطئة لاستقبال رسالة الوحي.

أما غار حراء فكان وسيلته إلى هذه الخلوة، ومن يتأمل موقع الغار وهيئته وكيفية صعوده، يخلص إلى أن الرسول ﷺ لم يقف عليه مصادفة، بل جاء نتاج بحث وجهد ليحقق فيه مقصوده من الخلوة، فالمكان بعيد عن صخب الحياة المكية، والجالس فيه يقع ناظريه على بيت الله الحرام، بل يرى الأفق اللامحدود، والفضاء الممتد إلى السماء، وجميعها أجواء تبعث على التأمل في كتاب الله المنظور الذي سطر فيه بديع خلقه.

أما عن حقيقة تعبده ﷺ في الغار، فذهبت بعض الآراء إلى أنه تعبد بشرع بعض السابقين من الأنبياء، ولكن رأي الجمهور جاء على النقيض، حيث لا يجوز أن يجري مثل هذا الأمر على النبي ﷺ، فضلاً عن أنه لم يثبت أن النبي ﷺ كان على صلة بشرع أحد من الأنبياء قبله.

---

(١) البخاري: الصحيح (٤٦٧٠) ٤/ ١٨٩٤، مسلم: الصحيح (٤٢٢) ٩٧/١.
(٢) القاضي عياض: الشفا ١٠١/٢، الصالحي: سبيل الهدى والرشاد ٣٩٢/٢.
(٣) يتحنث: أي يتعبد. ابن الأثير: النهاية ١/ ١٠٦٠.
(٤) البخاري: الصحيح (٤٦٧٠) ١٨٩٤/٤، مسلم: الصحيح (٤٢٢) ٩٧/١.
(٥) سورة الضحى: آية ٧.

وعلى هذا فالأظهر والأنسب لحال النبي ﷺ في هذه المرحلة أن يكون التفكر جوهر عبادته في الغار، فتدبر آيات الله تعالى في خلق السموات والأرض، تودي إلى التسليم بوحدانيته واليقين بكمال قدرته، وقد جرى ذلك قبله مع إبراهيم عليه السلام، يقول تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴾(١).

ثمة ملمح أخير في هذا السياق يتعلق بموقف زوجه خديجة ل من أحداث الغار، حيث أعانته بالزاد كي يواصل خلوته وتعبده، ويقيني أن هذه الإعانة أخذت أيضاً شكلاً معنوياً، أي أنها باركت صنيعه منذ اللحظة الأولى،بل شاركته وجدانياً، ودفعت به أن يواصل تجربة الخلوة، ومن الدلائل الشاهدة على هذا المعنى، تكرار دعمها له بالزاد مرات عديدة،حتى فسر بعض أهل العلم قول عائشة ل :«ثم يرجع إلى خديجة فيتزود بمثلها»،بأنه ﷺ كان يتزود ويخلو أياماً، ثم يرجع ويتزود ويخلو أياماً، ثم يرجع ويتزود ويخلو أياماً إلى أن ينقضي الشهر(٢). فضلاً عن ذلك جليل موقفها مما قصه عليها حين التقى بأمين الوحي في الغار، فهذا الموقف كاشف عن إيمانها وإقرارها بعظيم مقصد هذه الخلوة، ولهذا كانت أول من آمن برسالته.

ومن إرهاصات نبوته ﷺ أيضاً تسليم الحجر عليه بمكة، فيقول ﷺ :«إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم عليَّ قبل أن أبعث، إني لأعرفه الآن»(٣). وذهب السهيلي(٤) إلى إن المقصود هو الحجر الأسود.

---

(١) **سورة الأنعام: آية ٧٥.**
(٢) **ابن حجر: فتح الباري ٧١٧/٨.**
(٣) مسلم: الصحيح (٦٠٧٨) ٥٨/٧.
(٤) الصالحي: سبيل الهدى والرشاد ٣٩٢/٢ .

٥- نزول الوحي على النبي ﷺ في غار حراء

الصواب المشهور الذي أطبق عليه أهل العلم، أن الله تعالى بعث النبي ﷺ بعد أن أتم أربعين عاماً[١]، يقول ابن إسحاق[٢]:«فلما بلغ محمد رسول الله ﷺ أربعين سنة بعثه الله تعالى رحمة للعالمين وكافة للناس بشيراً». وثمة حكمة وراء بعث النبي ﷺ في هذا السن؛ لأنها سن الكمال، وفيها تبعث الرسل[٣].

أما عن اليوم الذي نزل فيه الوحي على النبي ﷺ فهو يوم الاثنين،ولهذا قال لما سئل عن صوم يوم الاثنين؟ قالﷺ:« ذاك يوم ولدت فيه، ويوم بعثت أو أنزل عليَّ فيه..»(٤)، والمشهور أن ذلك جرى في شهر رمضان لقوله تعالى: ﴿ شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ ﴾[٥].

واختلف العلماء في تحديد اليوم الذي نزل فيه الوحي، إلا أن المباركفوري(٦) رجح في ضوء ما توافر لديه من أدلة وقرائن، أن هذا اليوم هو إحدى وعشرين مضت من شهر رمضان ليلاً، الموافق١٠ أغسطس سنة٦١٠م، وكان عمره ﷺ إذ ذاك على وجه التحديد أربعين سنة قمرية، وستة أشهر، و١٢ يوماً، وذلك نحو ٣٩ سنة شمسية، وثلاثة أشهر، و١٢يوماً.

وعن حادثة نزول الوحي على النبي ﷺ في غار حراء، تقول عائشة ل:«..فجاءه الملك فقال: اقرأ، فقال رسول الله ﷺ:ما أنا بقارئ. قال: فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني، فقال: اقرأ، قلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني، فقال: اقرأ، قلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ﴾ الآيات إلى قوله ﴿عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ﴾[٧].

---

(١)النووي: شرح النووي على صحيح مسلم ٩٩/١٥، ينظر السهيلي: الروض الأنف ٢٥٠/٢.

(٢) ابن هشام: السيرة ٢٣٣/١،البخاري: الصحيح (٣٣٥٤) ٣/ ١٣٠٢.

(٣)ابن قيم: زاد المعاد ٨٤/١.

(٤) مسلم: الصحيح (٢٨٠٤) ٣/ ١٦٧.

(٥)سورة البقرة: آية ١٨٥.

(٦)الرحيق المختوم ص٥٦.

(٧) البخاري: الصحيح (٤٦٧٠) ١٨٩٤/٤، مسلم: الصحيح (٤٢٢) ٩٧/١.

أما ما قاله ابن إسحاق من أن رسول الله ﷺقال:« فجاءني جبريل وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب فقال: اقرأ..»[1]، فهو يخالف ظاهر رواية عائشة ل عند البخاري ومسلم، بأن الوحي جاءه يقظة، غير أن السهيلي[2] جمع بين الروايتين« بأن النبي ﷺ جاءه جبريل في المنام قبل أن يأتيه في اليقظة توطئة وتيسيراً عليه ورفقاً به؛ لأن أمر النبوءة عظيم وعبؤها ثقيل والبشر ضعيف».

وقد حاول بعض المستشرقين التشكيك في المصدر الإلهي للوحي، بدعوى أن حقيقة الوحي ليست إلا مزجاً منتخباً من أدبيات ومعارف دينية استقاها الرسول ﷺ بمحض اتصاله بالعناصر اليهودية والمسيحية(٣). والحقيقة إن هذا زعم باطل مرده خلل في المنظور الاستشراقي الذي لا يؤمن بالغيبيات، ومن ثم فالوحي ليس إلا فكرة صنعها خيال الأنبياء والرسل، ولهذا يرى (جولد تسيهر)(٤) أن الذي ألمَّ بالنبي ﷺحالة نفسية مبعثها «الأحلام القوية والرؤى الدينية». أما الحقيقة التي لا مراء فيها أن أميّة النبي ﷺ حالت دون أن يكون له سابق اتصال بأية معارف توراتية أو إنجيلية، وقد أكد القرآن على ذلك بمنطق العقل في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾[5].

---

(١) ابن هشام: السيرة ٢٣٥/١.
(٢) الروض الأنف ٢٥٧/٢.
أما ما رواه جابر بن عبد الله رضي الله عنه من أن أول ما أنزل عليه ﷺ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾، فذهب ابن قيم إلى أن الصحيح ما روته عائشة رضي الله عنها وهو قول الجمهور لوجوه:
أولاً: أن قوله: «ما أنا بقارئ » صريح في أنه لم يقرأ قبل ذلك شيئاً.
ثانياً: الأمر بالقراءة يأتي في الترتيب قبل الأمر بالإنذار، فإنه إذا قرأ في نفسه، أنذر بما قرأه، فأمره بالقراءة أولا، ثم بالإنذار بما قرأه ثانياً.
ثالثاً: أن حديث: أول ما أنزل من القرآن ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ فهو قول لجابر ولم يرفعه للنبي ﷺ، أما حديث عائشة فقد أخبرت عن خبره ﷺعن نفسه بذلك.
رابعاً: أن حديث جابر الذي احتج به صريح في أنه قد تقدم نزول الملك عليه أولا قبل نزول ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾، فإنه قال: «فرفعت رأسي فإذا الملك الذي جاءني بحراء، فرجعت إلى أهلي فقلت:= =زملوني دثروني، فأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ »وقد أخبر أن الملك الذي جاءه بحراء أنزل عليه (ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ)، فدل حديث جابر رضي الله عنه على تأخر نزول ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ والحجة في روايته، لا في رأيه. زاد المعاد ٨٤/١.
(٣) العقيدة والشريعة في الإسلام ص١٢
(٤) العقيدة والشريعة ص١٢
(٥) سورة النحل: آية ١٠٣.

عناية خديجة ﵂ بالنبي ﷺ وتثبيتها له بعد أحداث الغار:

هرع النبي ﷺ إلى خديجة ل وفؤاده يرجف، ودخل عليها وهو يقول: «زملوني زملوني»، فزملوه حتى ذهب عنه الروع، ثم قص عليها ما حدث». وهنا جسدت خديجة أسمى مثال للمرأة المحبة لزوجها، المؤمنة بقدره، البصيرة بحاله، حيث أدركت بفطنتها بأن ما كان عليه رسول الله ﷺ من جميل الخلق وكريم الشمائل لا يمكن أن يكون جزاءه من الله البلاء والخزي والهوان، ولهذا ردت عليه في يقين وثبات بقولها:« كلا أبشر فوالله لا يخزيك الله أبداً، فوالله إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق»(١).

الرسول ﷺ بين يدي ورقة بن نوفل:

بعد أن هدّأت خديجة ل من روع النبي ﷺ، انطلقت به حتى أتت ابن عمها ورقة بن نوفل، وكان شيخاً كبيراً قد عمي، اعتنق النصرانية في الجاهلية، وتعلم اللسان العبراني التي كتب بها الإنجيل، فكان يكتب من الإنجيل بالعربية ما شاء الله أن يكتب، فقالت خديجة: يا ابن عم اسمع من ابن أخيك، قال ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى؟، فأخبره النبي ﷺ خبر ما رأى، فقال ورقة: هذا الناموس(٢) الذي أنزل على موسى، ليتني فيها جذعاً(٣) ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك، قال رسول الله ﷺ: «أو مخرجي هم ؟». قال ورقة: نعم لم يأت رجل بما جئت به إلا أوذي، وإن يدركني يومك حياً أنصرك نصراً مؤزراً . ثم لم ينشب ورقة أن توفي وفتر الوحي فترة، حتى حزن رسول الله ﷺ »(٤).

ومن الجدير بالذكر الإشارة إلى ما افتراه البعض من أن ورقة بن نوفل النصراني كان أستاذاً للنبيﷺ، تلقى عنه الديانة النصرانية قبل البعثة من أجل إعداده بمعارفها، ليخلفه من بعده على أسقفية مكة، ومن ثم يصبح الإسلام صورة مستحدثة من النصرانية(٥).

---

(١) البخاري: الصحيح (٤٦٧٠) ٤/١٨٩٤، مسلم: الصحيح (٤٢٢) ١/٩٧.
(٢)الناموس: أي جبريل عليه السلام. ابن الأثير: النهاية ٥/٢٥١ .
(٣)جذعاً: أي شاباً. ابن الأثير: النهاية ١/٧١٣.
(٤) البخاري: الصحيح (٤٦٧٠) ٤/ ١٨٩٤، مسلم: الصحيح (٤٢٢) ١/٩٧.
(٥) ينظر منتجمري وات: محمد في مكة ص١٢١،

أبو موسى الحريري: قس ونبي ttp://www.servant13.net/qis/warqa11.htm، **عزت أندراوس : النصرانية** ،http://www.coptichistory.org/new_page_341.htm

وقد فند أحد الدارسين كل ما طرح من شبهات في هذا الصدد، وبرهن على أنه لم ترد في المصادر أية إشارة عن وجود علاقة معرفية جمعت بين ورقة والنبي ﷺ من أجل هذا المقصد، بل لم يرد في رواية الصحيح السالفة ما يدل على ذلك، ولو افترضنا صحة هذا الزعم لظهرت أمارات تدل عليها في حوار ورقة مع النبي ﷺ ولكن هذا لم يحدث، ومن ثم فكل ما قيل في إثبات هذه العلاقة محض افتراء وبهتان(١).

فتور الوحي ثم تتابعه:

فتر الوحي بعد حادث الغاروتأخر نزوله على النبي ﷺفترة من الزمن، اختلفت الروايات في تقدير مدتها، وقد شق انقطاع الوحي عليه ﷺ فأحزنه ذلك كثيراً، ظناً منه أن الله قلاه وأعرض عنه. وعن حكمة فتور الوحي يقول ابن حجر(٢): «ليذهب ما كان ت وجده من الروع وليحصل له التشوف إلى العود».

أما عن عودة الوحي بعد فتوره،فعن جابر بن عبدالله الأنصاري ت عن النبي ﷺ قال:«بينما أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء، فرفعت بصري فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض، فرعبت منه، فرجعت فقلت: زملوني، فأنزل الله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾ ، إلى قوله تعالى: ﴿وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ﴾ (٣)(٤)، وكان نزول هذه الآيات إعلاماً للنبي ﷺ بنبوّته، وتكليفاً له بتحمل أعباء هذا الدين، والقيام بواجب الدعوة والبلاغ، ثم حمي الوحي وتتابع عليه بعد.

---

(١) لمزيد من التفصيل ينظر ياسر أحمد نور: ورقة بن نوفل بين المسيحية والإسلام ص٣٥٩-٣٦٥.

(٢)فتح الباري ٢٧/١.

(٣)سورة المدثر: آية ١-٢.

(٤) البخاري: الصحيح (٤) ٥/١.

٦-مرحلة الدعوة السرية

استغرقت الدعوة السرية من عمر المرحلة المكية ثلاث سنوات، يقول ابن إسحاق:«وكان بين ما أخفى رسول الله ﷺ أمره واستتر به، إلى أن أمره الله تعالى بإظهار دينه ثلاث سنين – فيما بلغني- من مبعثه»(١). وتبدأ هذه الفترة السرية من نزول قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾(٢).

ويمكن الوقوف على تصور لا بأس به عن طبيعة الدعوة في المرحلة السرية، من خلال تأمل مضمون الخطاب القرآني في صدر سورة «المدثر» ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ (١) قُمۡ فَأَنذِرۡ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ (٤) وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ (٥) وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ (٦) وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ﴾(٣).

فهذه التوجيهات الربانية جاءت لترشد النبي ﷺ إلى أنه لايستثني في دعوته أحداً بعيد عن مرضاة الله إلا وينذره بسوء العاقبة إن ظل على العناد والكفر، وأن لا يبقي في الأرض كبرياء إلا لله، وأن يحرص على تطهير ظاهره وباطنه وتزكية نفسه، حتي يصبح لغيره أسوة ومثلاً يحتذى. وأن يجافي شعور الاستكثار بالمنة حيال ما قدمه من بذل وتضحيات، بل يفنى في الشعور بالله كي لا يمتلكه الفخر بما بذل أو الغرور بما قدَّم. وأخيراً نبه الله تعالى نبيه ﷺ إلى أنه ينتظره في سبيل ذلك استهزاء وسخرية وقتل وإبادة، وعليه أن يتحلى حيال ذلك كله بالجلد والصبر.

إذن فالإلحاح على جانب التوحيد، والإيمان باليوم الآخر، والقيام بتطهير النفس وتزكيتها، والتفويض الكامل لله في جميع الأمور، كان هو التوجه العام لدعوة النبي ﷺ في هذه المرحلة السرية

يعود السبب في ذلك إلى أن العقيدة الصحيحة هي التي ينبثق عنها العبادة الصحيحة، والسلوك الصحيح، وهي التي تضمن في الوقت نفسه الثبات على الحق، وتحمل التضحيات في سبيله عندما يطلب من المسلم أن يؤديها(٤)،

---

(١) ابن هشام: السيرة ٢٦٢/١.
(٢) الحلبي: السيرة ٤٠٢/١.
(٣) أخرج البخاري عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أنه كان يقول: أول شيء نزل من ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾. إلا أن الجمهور خالفه فذهبوا إلى أن أول القرآن نزولاً ، قوله تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ . وقد احتوى ابن كثير هذا التعارض الظاهري من خلال آلية الجمع بين الروايات، فذهب إلى أن آيات سورة العلق كانت أول ما نزل من الوحي على النبي ﷺ في الغار، أما آيات ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ فأول ما نزل عليه ﷺ بعد فتور الوحي. ينظر: الصحيح (٤٦٣٨) ١٨٧٤/٤، التفسير ٢٦١/٨.
(٤) منير الغضبان: المنهج الحركي في السيرة النبوية ٣٠/١.

وهذا ما تجلى واقعاً في صبر الصحابة رضوان الله عليهم على إيذاء قريش وتعذيبها لهم بعد أن جهر الرسول ﷺ بالدعوة.

أدرك الرسول ﷺ منذ بداية هذه المرحلة، أن الدخول مع قريش في حوار صريح يخص صميم أحوالهم العقدية والفكرية والاجتماعية، لا يزيد الأمر معهم إلا تعقيداً، لأن الدعوة بهذا المفهوم تعني إبطال عقائدهم، وهدمٌ للمنظومة الاجتماعية والفكرية التي توارثوها(١).

ومن ثم كان لابد له من إعمال التخطيط لمواجهة هذا التحدي، ومن يمعن النظر سيلحظ أن النبي ﷺ اتبع ثلاثة أساليب في الدعوة مع الفئة المؤمنة في هذه المرحلة، تتمثل في الآتي:

أسلوب التدرج: ويقصد به التقدم في الدعوة شيئاً فشيئاً، وخطوة خطوة دون عجلة واستباق للنتائج، ولهذا كان النبي ﷺ يعرض الإسلام أولاً على ألصق الناس به من أهل بيته، ثم الأقرب فالأقرب. وهذا الأمر يُتَأمل في أوائل من دخل الإسلام من الصحابة.

أسلوب الاتصال الفردي:يعد الاتصال الفردي من أهم الوسائل التي عول عليها الرسول ﷺ في نشر الدعوة في هذه المرحلة، ويقوم الاتصال الفردي على انتقاء الشخصيات التي يثق النبي ﷺ في عقولهم والمؤمل فيهم استجابتهم للدعوة، وذلك حتى لا يتسرب للدعوة من ليس في مستواها، ويجنبها تداعيات الرفض في حالة عدم قبول أمره، الأمر الذي قد يثيرهم ويعبئهم ضد الدعوة(٢).

ومن الشواهد الدالة على ذلك تجنبه ﷺ دعوة أقرب الناس إليه، وهو عمه أبو طالب الذي لم يدعوه للإسلام إلا عندما فاجأ النبي ﷺ وابنه عليّاً وهما يصليان، وعندئذ عرض عليه الإسلام(٣).

أسلوب الحذر والسرية:اعتمد الرسول ﷺ أسلوب الحذر والسرية، لكونه إجراء حتمي يناسب طبيعة هذه المرحلة اسماً ومضموناً، وذلك حتى لا تتنبه قريش لصنيعه، وهو ما يتيح للدعوة الفرصة كي يشتد عودها، ومن ثم يصبح النبي ﷺ بعد تحقيق هذا المطلب قادر على مجابهة كل معاند متكبر. يقول ابن إسحاق: « فجعل رسول الله ﷺ يذكر ما أنعم الله به عليه وعلى العباد به من النبوة سراً إلى من يطمئن إليه من أهله»(٤).

---

(١) أمين دويدار: صور من حياة الرسول ﷺ ص١٢٦.
(٢) الطيب برغوث: منهج النبي ﷺ في حماية الدعوة ص٢٩٠.
(٣) ابن هشام: السيرة ٢٤٧/١.
(٤)ابن هشام: السيرة ٢٤٣/١.

ومن الشواهد الدالة على هذا الأسلوب: دعوته ﷺ عليّ بن أبي طالب ت، للإسلام، فلما سأله عليّ أن يمهله حتى يستشير أبا طالب « فكره رسول الله ﷺ أن يفشي عليه سره قبل أن يستعلن أمره، فقال له: يا عليِّ إذ لم تسلم فاكتم»(١).

والمستقرىء لمجريات أحداث فترة الدعوة السرية، سيلحظ أنها مرت بمرحلتين رئيستين، هما:

- مرحلة ما قبل الدعوة في دار الأرقم بن أبي الأرقم.
- مرحلة الدعوة في دار الأرقم بن أبي الأرقم.

بالنسبة للمرحلة الأولى فكانت تتم سراً في شعاب مكة،وتشير الروايات إلى أن أول ما نزل من أحكام في هذه المرحلة: الصلاة، حيث قام جبريل عليه السلام بتعليم النبي ﷺ أمر الوضوء والصلاة.

يروي أسامة بن زيد رضي الله تعالى عنهما: أن جبريل أتى النبي ﷺ في أول ما أوحى إليه فأراه الوضوء والصلاة، فلما فرغ من الوضوء حثا حفنة من الماء فنضح بها فرجه.وكانت هيئة الصلاة ركعتين بالغداة، وركعتين بالعشي(٢).

وقدر رأي عفيف الكندي ت(٣)النبي ﷺ وزوجه خديجة ل وابن عمه علي بن طالب ت يتخفون بصلاتهم في منى. بل قال ت:« لوددت أني كنت أسلمت يومئذ فيكون لي ربع الإسلام»(٤).

وتبع الصحابة النبي ﷺ في ذلك، فكانوا يذهبوا إلى الشعاب ليستخفوا بصلاتهم من قومهم، وبينما سعد بن أبي وقاص ت في نفر من أصحاب رسول الله ﷺ في شعب من شعاب مكة، فاستطاع نفر من المشركين أن يصلوا إليهم وهم يُصلّون فناكروهم وعابوا عليهم ما يصنعون حتى قاتلوهم، فضرب سعد بن أبي وقاص ت يومئذ رجلاً من المشركين بلحي بعير فشجه، فكان أول دم أهريق في الإسلام»(٥).

---

(١) البيهقي: دلائل النبوة ١٦١/٢، البداية والنهاية٣٤/٣.
(٢) ابن حجر: فتح الباري ٤٦٥/١، ٢٠٣/٧.
(٣) عفيف بن قيس بن معد يكرب الكندي، ابن عم الأشعث بن قيس، له صحبة روى عنه ابناه يحيى وإياس أحاديث منها نزوله على العباس في أول الإسلام. ابن عبد البر: الاستيعاب ١٢٤١/٣، ابن حجر: الإصابة (٥٦٠٢) ٤٢٥/٤.
(٤)الحاكم: المستدرك (٤٨٤٢) ٢٠١/٣ .قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقال عنه الذهبي في التلخيص: صحيح. علق ابن عبد البر على هذه الرواية بقوله:«حديث حسن جدا»: الاستيعاب ١٢٤١/٣.
(٥) ابن هشام: السيرة ٢٦٣/١.

أما المرحلة الثانية، وهي مرحلة الدعوة في دار الأرقم بن أبي الأرقمت، فجاءت رد فعل لحادثة سعد بن أبي وقاص ت، حيث ارتأى النبي ﷺ ضرورة الإسراع في البحث عن مكان آمن، ليواصل فيه دعوته السرية، متخفيا بها هو وأصحابه عن أعين المشركين، حيث أدرك ﷺ أن المواجهة مع قريش لو تعددت وطالت لأفضت إلى تدمير المسلمين وإبادتهم في هذه المرحلة الحرجة، لذا وجد من الحكمة البحث عن مأوى جديداً تحقيقا لهذا المقصد المرحلي، فجاء اختياره دار الأرقم بن أبي الأرقم لتصبح مقراً للدعوة.

والمتأمل في اختياره ﷺ لهذه الدار سيلحظ أنه انطلق من تخطيط محكم؛ فدار الأرقم تقع على جبل الصفا، وهي منطقة تموج بالمارة،ومن ثم يصعب إدراك وجود ممارسات سرية بهذه الدار. أضف إلى ذلك أن الأرقم كان فتى صغيراً لم يكن معروفاً بإسلامه، فضلاً عن أنه من بني مخزوم التي كانت على عداء مع بني هاشم، ومن ثم يُستبعد أن يتخفى النبي ﷺ لدى أحد منهم(١).

المكاسب التي حققتها الدعوة في المرحلة السرية:

من الواضح الجلي أن النبي ﷺ حقق مبتغاه من مرحلة الدعوة السرية، حيث نجح ﷺ من خلالها في إنجاز الآتي:

أولاً: بناء الجماعة المؤمنة وتربيتها على أساس العقيدة الصحيحة، الأمر الذي أهّلها لأن تكون قادرة على مواجهة عنت قريش واضطهادها، والذي قصدت به فتنة هذه الفئة عن دينها في مرحلة الجهر بالدعوة.

ثانياً: إحداث حالة من الانتشار الإعلامي للدعوة الإسلام بمكة، حيث أظهرت الفئة المؤمنة مزايا هذا الدين، وبينت ما به من خير وفضيلة، وفي هذا يقول ابن إسحاق(٢):« ثم دخل الناس في الإسلام أرسالاً من الرجال والنساء، حتى فشا ذكر الإسلام بمكة، وتُحدث به».

ويثبت هذا القول لو فحصنا قائمة الصحابة الأوائل الذين أسلموا في هذه المرحلة، فخديجة ل «فكانت أول من آمن بالله ورسوله وصدّق بما جاء به..»(٣)، ويقول عنها ابن الأثير(٤):« أول خلق الله أسلم بإجماع المسلمين لم يتقدمها رجل ولا امرأة..».

---

(١) المباركفوري: الرحيق المختوم ص٨٠، مهدي رزق الله: السيرة النبوية ص١٩٥.
(٢)السير والمغازي ص١٤٤، ابن هشام: السيرة ٢٦٢/١.
(٣) ابن هشام السيرة ٢٣٨/١.
(٤) أسد الغابة ٨٩/٧.

ثم تلى خديجة ل إسلاماً علي بن أبي طالب ت(١)، وقد اختلفت الآراء حول السن الذي اعتنق فيه علي بن أبي طالب ت الإسلام، وأصح ما قيل في ذلك أنه ت أسلم وهو ابن ثلاث عشرة سنة(٢).

أما من تلى علي بن أبي طالب ت إسلاماً، فزيد بن حارثة ت مولى رسول الله ﷺ (٣).

ثم أسلم أبو بكر ت بعد إسلام زيدت حسبما ذكر ابن إسحاق(٤).وتشير الروايات إلى أنه لم يدخل في نفسه الريب ولم يتردد لحظة في الدخول إلى الإسلام، يقول النبي ﷺ:« ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت فيه عنده كبوة، ونظر وتردد، إلا ما كان من أبي بكر بن أبي قحافة، ما عكم عنه حين ذكرته له، وما تردد فيه»(٥).

ثم قام أبو بكرت يظهر إسلامه وأخذ يدعو إلى الله مستثمراً مكانته التي اكتسبها بين قومه لعلمه (أي بالأنساب) وتجارته وحسن مجالسته، فجعل يدعو إلى الإسلام من وثق به من قومه ممن يغشاه ويجلس إليه(٦)، فأسلم على يديه:الزبير ابن العوام رضي الله عنه، وعثمان بن عفان رضي الله عنه، وطلحة بن عبيد الله رضي الله عنه، وسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه. يقول ابن إسحاق:«فكان هؤلاء النفر الثمانية الذين سبقوا الناس بالإسلام فصلوا وصدقوا رسول الله ﷺ بما جاءه من الله».

ثم تلا هؤلاء إسلاماً: أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه، وأبو سلمة بن عبد الأسد رضي الله عنه، والأرقم بن أبي الأرقم رضي الله عنه، وعثمان بن مظعون رضي الله عنه، وأخواه قدامة وعبد الله ابنا مظعون رضي الله عنهما، وعبيدة بن الحارث بن المطلب رضي الله عنه، وسعيد ابن زيد بن عمرو بن نفيل رضي الله عنه، وامرأته فاطمة بنت الخطاب أخت عمر بن الخطاب رضي الله عنها، وأسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها، وعائشة بنت أبي بكر رضي الله عنها، وخباب بن الأرت رضي الله عنه، وعمير بن أبي وقاص رضي الله عنه،

(١) ابن عبد البر: الاستيعاب١٠٩٤/٣.
(٢) الاستيعاب١٠٩٤/٣، ١٠٩٥.
(٣) ابن هشام: السيرة ٢٤٧/١. بينما ذهب ابن شهاب الزهري: أنه ما علم أحداً أسلم قبل زيد بن حارثة.ابن عبد البر: الاستيعاب٥٤٦/٢، ابن قيم: زاد المعاد ٢١/٣.
(٤)ابن هشام: السيرة ٢٤٩/١. ذكر محمد بن كعب القرظي وغيره أن إسلام أبا بكر جاء بعد إسلام علي بن أبي طالب، لأنه أول من دخل الإسلام بعد خديجة رضي الله عنها. الصالحي: سبيل الهدى والرشاد ٣٠٢/٢.
(٥)ابن هشام: السيرة ٢٥٢/١، يقول البيهقي:« وهذا لأنه كان يرى دلائل نبوة النبي ﷺ ويسمع آثاره قبل دعوته، فحين دعاه كان قد سبق فيه تفكره ونظره فأسلم في الحال».دلائل النبوة ١٦٤/٢.
(٦) ابن هشام: السيرة ٢٥٠/١.

وعبد الله بن مسعود رضي الله عنه، ومسعود بن القاري رضي الله عنه، وسليط بن عمرو بن عبد شمس رضي الله عنه، وأخوه حاطب ابن عمرو رضي الله عنه، وعياش بن أبي ربيعة رضي الله عنه، وامرأته أسماء بنت سلامة التميمية رضي الله عنها، وخنيس بن حذافة رضي الله عنه، وعامر بن ربيعة رضي الله عنه، وعنز بن وائل رضي الله عنه، وعبد الله بن جحش رضي الله عنه، وأخوه أبو أحمد بن جحش رضي الله عنه، وجعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، وامرأته أسماء بنت عميس رضي الله عنها ، وحاطب بن الحارث رضي الله عنه، وامرأته فاطمة بنت المجلل رضي الله عنها، وأخوه حطاب بن الحارث رضي الله عنه، وامرأته فكيهة بنت يسار رضي الله عنها، ومعمر بن الحارث بن معمر رضي الله عنه، والسائب بن عثمان بن مظعون رضي الله عنه، والمطلب بن أزهر بن عبد عوف رضي الله عنه، وامرأته رملة بنت أبي عوف رضي الله عنها، والنحام بن عبد الله بن أسيد رضي الله عنه، عامر بن فهيرة رضي الله عنه مولى أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وخالد بن سعيد بن العاص رضي الله عنه، وامرأته أمينة بنت خلف ابن أسعد رضي الله عنها، وحاطب بن عمرو بن عبد شمسن رضي الله عنه، مالك بن حسل بن عامر رضي الله عنه، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة رضي الله عنه، وواقد بن عبد الله بن عبد مناف رضي الله عنه، وخالد وعامر وعاقل وإياس بنو البكير بن عبد ياليل رضي الله عنهم، وعمار بن ياسر رضي الله عنه، وصهيب بن سنان رضي الله عنه[(١)].

وقد لوحظ أن أغلب من دخل الإسلام في هذه المرحلة كانوا من المستضعفين والفقراء والأرقاء، وتكمن الحكمة في ذلك أن هذه الطائفة هم أتباع الرسل طيلة تاريخ النبوة والرسالات، وأنصار دعواتهم في مراحلها الأولى[(٢)]، لأنهم وجدوا في جوهر الإسلام الانعتاق من كل عبودية، وهجر كل ألوهية سوى عبودية وألوهية الله ﷻ، لذا رأيناهم يستعذبون الموت في سبيل نصرته والتضحية من أجله، أمام جبروت الملأ وسطوة السادة والكبراء من قريش الذين كان ديدنهم في كل عصر الكبر والعناد ومحاربة الرسل، ولنتأمل هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾[(٣)].

---

(١) ابن هشام: السيرة ٢٥٢/١، ٢٦٢.

(٢) وقد كان ذلك من العلامات التي استرشد بها هرقل في تيقنه من أن النبي ﷺ مرسل من قبل الله ﷻ ، وذلك عندما سأل أبو سفيان «..فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم ؟ فقلت (أي أبو سفيان): بل ضعفاؤهم.. فقال هرقل: « وهم أتباع الرسل». راجع نص البخاري: الصحيح (٧) ٧/١.

(٣)سورة الأعراف: آية ٧٥، ٧٦ .

ثالثاً: نجح النبي ﷺ في هذه المرحلة أن يتجاوز بالدعوة خارج الحدود المكية، يدل على ذلك إسلام أبي ذر الغفاري ت وعدد كبير من أبناء قبيلته، وكذا إسلام عمرو بن عبسة السلمي(١)ت الذي رغب أن يجاور الرسول ﷺ بمكة، فقال له ﷺ:« ارجع إلى أهلك فإذا سمعت بي قد ظهرت فأتني»[٢].

---

(١)عمرو بن عبسة عبادة السلمي رضي الله عنه، اعتزل عبادة الأوثان قبل أن يسلم، أسلم قديماً بمكة ثم رجع إلى بلاده، فأقام بها إلى أن هاجر بعد خيبر، وقيل فتح مكة، ثم سكن، وتوفي في خلافة عثمان رضي الله عنه كما رجح ابن حجر. الإصابة (٥٩١٨) ٤/٤٥٤.

(٢) مسلم: الصحيح (١٩٦٧) ٢/٢٠٨.

٧- الأمر من الله بإعلان الدعوة

نجح النبي ﷺ في أن يحقق أهدافه في مرحلة الدعوة السرية، حيث تكونت الجماعة المؤمنة على أساس العقيدة الصحيحة التي ستنهض بنصرة هذا الدين، ويمكن أن نلمس ذلك في قول ابن إسحاق(١):« ثم دخل الناس في الإسلام إرسالاً من الرجال والنساء، حتى فشا ذكر الإسلام بمكة، وتُحدِث به. ثم إن الله ﷻ أمر رسوله ﷺ أن يصدع بما جاءه منه، وأن يبادي الناس بأمره وأن يدعوا إليه..».

فنزل قول الله تعالى: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٢). ويروي ابن عباس ب أنه لما نزلت هذه الآية صعد النبي ﷺ جبل الصفا فجعل ينادي: يا بني فهر يا بني عدي لبطون قريش حتى اجتمعوا، فقال لهم: «أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي ؟ قالوا: نعم ما جربنا عليك إلا صدقاً، قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد، فقال أبو لهب: تباً لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا ؟..»(٣).

ولعل الحكمة من وراء ذلك أن دخول الأقربين في الإسلام، فيه دعم للنبي ﷺ وقوة للدعوة أمام أعدائها، خاصة وأن النظام القبلي في ذلك المجتمع يعتمد كثيراً على الحمية والوقوف مع القبيلة في السراء والضراء. ولهذا يقول ابن خلدون(٤) مفسراً هذا الجانب:« إن قريشاً كانوا عصبة مضر وأصلهم وأهل الغلب منهم، وكان لهم على سائر مضر العزة بالكثرة والعصبية والشرف، فكان سائر العرب يعترف لهم بذلك ويستكينون لغلبهم..» .

أما إن أبت العشيرة إلا الكفر والعناد، فهنا يلزم على النبي ﷺ التبرؤ مما صنعوا، وفي هذا التبرؤ فائدة جليلة للدعوة، وهي أنه عندما ترى القبائل ذلك توقن أن الأمر جلل، وأن صاحب الدعوة ﷺ لن يتوانى في سبيل نشر دعوته

وعلى هذا كان لابد للدعوة أن تأخذ توجهاً جديداً، يقوم على مواجهة الملأ والسادة من قريش لا التخفي منهم، لكونهم أضحوا عقبة كؤوداً أمام مسيرة الدعوة. من هنا جاء الأمر القرآني حاسماً في هذا الشأن ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾(٥)، أي «افرق بين الحق والباطل».

(١) السير والمغازي ص١٤٤، ابن هشام: السيرة ٢٦٢/١.
(٢) سورة الشعراء: آية ٢١٤، ٢١٥.
(٣) البخاري: الصحيح (٤٤٩٢) ١٧٨٧/٤، مسلم: الصحيح (٥٢٩) ١٣٤/١.
(٤) ابن خلدون: المقدمة ص١٩٥
(٥)سورة الحجر: آية ٩٤.

وهنا لم تعد الدعوة تقتصر على النطاق القرشي من العشيرة والأقربين، بل على النبي ﷺ أن يواجه الجميع سواء من سكن مكة من قومه، أو أتاها حاجاً في المواسم، أو تاجراً في الأسواق. وعلى هذا سلك النبي ﷺ نهجاً آخر يتناسب وطبيعة هذه المرحلة الجديدة، معتمداً في ذلك على الوضوح في إظهار العقيدة والقوة في إعلان الدعوة.

موقف قريش من إعلانه للدعوة:

يقول ابن إسحاق:« فلما بادى رسول الله ﷺ قومه بالإسلام وصدع به كما أمره الله..ولم يردوا عليه فيما بلغني حتى ذكر آلهتهم وعابها، فلما فعل ذلك أعظموه وناكروه، وأجمعوا على خلافه وعداوته..»(١)، ولكن الله حمى رسولهﷺ بعمه أبى طالب، لأنه كان شريفاً معظماًفي قريش، ولا يتجاسرون على مواجهته بشيء من الأذى(٢).

ولهذا لما وجدت قريش في مبدأ الأمر أنه ليس بإمكانها النيل من محمد ﷺ بأذى طالما تحوطه حماية عمه أبى طالب، ذهب إليه وفد من أشرافهم يطلبون منه أن يكف محمد ﷺ عن سب آلهتهم وعيب دينهم وتسفيه أحلامهم وضلال آبائهم، أو يتركه لهم يفعلون به ما شاءوا، فردهم أبو طالب رداً جميلاً .

رأت قريش أن هذا اللقاء لم يجد نفعاً،حيث إن محمداً ﷺ لم يَكُف عن الطعن في آلهتهم والعيب في آبائهم، وأبو طالب ما زال يشمله بحمايته والزود عنه، فذهبوا إليه مرة ثانية وأخبروه بأنهم لا يصبرون على شتم آبائهم وطعن آلهتهم وخيروه بين أمرين، فإما أن يمنع ابن أخيه عن دعوته، وإما أن يعلنوها حرباً عليه وعلى ابن أخيه حتى يهلك أحد الفريقين، فتملك أبو طالب حيرة وهم شديد، فاستدعى النبيﷺ وأخبره بتهديد قريش، وقال له:«ابق على نفسك وعلي ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق»، وهنا بدا للنبي ﷺ من كلمات عمه أنه خاذله ومسلمه، وأنه قد أعرض عن نصرته، وهو يعني أنه ﷺ تجرد عن أسباب الأمن والمنعة، فكان رد رسول الله ﷺ: «والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتي يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته»، وخرج رسول الله باكياً، فناداه أبو طالب وقال له:«اذهب يا ابن أخي، فقل ما أحببت فوالله لا أسلمك لشيء أبداً»(٣).

في الحقيقة هذا الموقف الجليل من قبل أبي طالب كان بمثابة قوة دفع كبيرة للنبي ﷺ في هذه المرحلة الدقيقة من تاريخ الدعوة، ولهذا «مضى رسول الله ﷺ على أمر الله مظهراً لأمره لا يرده عنه شيء».

(١) ابن هشام: السيرة ٢٦٣/١.
(٢)ابن هشام: السيرة ٢٦٣/١، ابن قيم: زاد المعاد ٢٢/٣.
(٣) ابن هشام: السيرة ٢٦٦/١، راجع أكرم ضياء العمري: السيرة النبوية الصحيحة ١٦٠/١.

رأت قريش أن تعمد إلى أسلوب آخر علهم يثنون به النبي ﷺ عن غايته، فلجأوا إلى المساومة والإغراء، فأغروا أبا طالب أن يرسلوا إليه بعمارة بن الوليد ابن المغيرة أقوى فتى في قريش وأجملهم، لينصره ويقوم على شأنه، مقابل أن يسلم لهم النبي ﷺ ليقتلوه، فكان رده عليهم:« والله لبئس ما تسومونني أتعطونني ابنكم أغذوه لكم، وأعطيكم ابني تقتلونه، هذا والله ما لا يكون أبداً..»(١).

عندما يئست قريش من أبي طالب، توجهت إلى النبي ﷺ نفسه فأغروه بالمال والجاه، حيث أرسلوا إليه عتبه بن ربيعة يفاوضه، إن كان يريد بهذا الأمر مالاً، جمعوا له من أموالهم حتى يكون أكثرهم مالاً، وإن كان يريد شرفاً جعلوه سيداً عليهم حتى لا يقطعون أمراً دونه، وإن كان يريد ملكاً ملكوه عليهم، وإن كان هذا الذي يأتيه مساً من الجن لا يستطيع رده عن نفسه، طلبوا له الطب وبذلوا فيه أموالهم حتى يبرؤوه منه. فلما فرغ عتبة طلب منه رسول الله ﷺ أن يسمعه شيئا من القرآن، فقرأ عليه ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ﴾ (فلما سمع عتبه أخذ ينصت إليه حتى انتهى الرسولﷺ إلى آية السجدة فسجدها، وقال: أسمعت يا أبا الوليد ؟، قال: سمعت، قال: فأنت وذاك

وجدت قريش أن الإغراء بالمال والجاه لن يجد فتيلاً مع النبيﷺ، وأن دعوته آخذة في الذيوع والانتشار، لذا نهجوا معه أسلوباً آخر، حيث طالبوه بالمعجزات الحسية ليعجزوه، فكان مما طلبوه منه حسبما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا ۝٩٠ أَوۡ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلۡأَنۡهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفۡجِيرًا ۝٩١ أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمۡتَ عَلَيۡنَا كِسَفًا أَوۡ تَأۡتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ۝٩٢ أَوۡ يَكُونَ لَكَ بَيۡتٌ مِّن زُخۡرُفٍ أَوۡ تَرۡقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤۡمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيۡنَا كِتَٰبًا نَّقۡرَؤُهُۥۗ قُلۡ سُبۡحَانَ رَبِّي هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾(٢).

أعرض الرسول ﷺ عن مطالب قريش فلم يستجب لهم، وكان بهذا الإعراض رحيماً بهم، لعلمه ﷺ بأن سنّة من قبله من الرسل إذا سألوا ربهم المعجزة لقومهم فتحققت وظلوا على تكذيبهم حق عليهم العذاب، وبالطبع لم يرد النبي ﷺ لقريش هذا المصير، ودليل ذلك لما أتاه جبريل عليه السلامفقال له:« إن ربك يقرؤك السلام ويقول لك: إن شئت أصبح لهم الصفا ذهباً، فمن كفر منهم عذبته عذاباً لم أعذبه أحداً من العالمين، وإن شئت فتحت لهم باب التوبة والرحمة، قال: «بل التوبة والرحمة»

---

(١) ابن هشام: السيرة ٢٦٧/١، وكذا ابن سعد: الطبقات الكبرى ٢٠٢/١.
(٢)سورة الإسراء: آية ٩٠،٩١، ٩٢، ٩٣ .

وفي هذا السياق أيضاً أرسلت قريش وفداً منهم إلى يثرب (المدينة) على رأسهم النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط، ليأتوا من اليهود بأسئلة تعجيزية ليطرحونها على النبي ﷺ، فأرشدوهم أن يسألوه عن أهل الكهف وعن ذي القرنين وعن الروح، فأنزل الله تعالى في ذلك قرآناً أجاب على أسئلتهم فرد كيدهم وأفحمهم(١).

ومن أساليبهم في مواجهة الدعوة: السخرية والاستهزاء والاستعلاء، ويشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ﴾ (٢). أما سبب نزول قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥ ﴾(٣) أن المشركين قالوا للنبي ﷺ: ولا نرضى بمجالسة أمثال هؤلاء - يعنون سلمان وصهيباً وبلالاً وخباباً - فاطردهم عنك

ومن وسائلهم أيضاً سب القرآن ومنَزّله، فنزول قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتۡ بِهَا وَٱبۡتَغِ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلٗا ﴾ لما كان رسول الله ﷺ مختف بمكة، فإذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن، فإذا سمعه المشركون سبوا القرآن ومن أنزله ومن جاء به، فقال الله تعالى لنبيه ﷺ ﴿وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ ﴾ ، أي بقراءتك فيسمع المشركون فيسبوا القرآن ﴿وَلَا تُخَافِتۡ بِهَا ﴾ عن أصحابك فلا تسمعهم ﴿ وَٱبۡتَغِ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلٗا ﴾ »

لم تقف جهود المشركين في مواجهة الدعوة وحصارها عند ذلك، بل تجاوزت حدود مكة، حيث رأت قريش أن تستغل موسم الحج للقيام بالدعاية ضد النبي ﷺ ودعوته، وقد أرشدهم الوليد بن المغيرة أن يلتقوا بوفود العرب القادمة إلى مكة في موسم الحج عليهم، وأن يجتمعوا على رأي واحد في محمد ﷺ ولا يختلفوا في أمره، حتى يتسنى لهم أن يحولوا دون الاستجابة لدعوته، فطلبوا منه أن يدلهم على الرأي الأمثل فيما يصمون به النبي ﷺ، فأجابهم بقوله:«إن أقرب القول فيه لأن تقولوا ساحر جاء بقول هو سحر يفرق به بين المرء وأبيه وبين المرء وأخيه وبين المرء وعشيرته». فتفرقوا عنه بذلك فجعلوا يجلسون في الطرق حين قدوم الناس في الموسم فلا يمر بهم أحد إلا حذروه إياه وذكروا لهم أمره. فأنزل الله في الوليد بن المغيرة قوله تعالى: ﴿ ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا ﴾ (٤)(١).

---

(١) ابن هشام: السيرة ١/٣٠٠، ٣٠١.
(٢)سورة المطففين: آية٢٩.
(٣)سورة الأنعام: آية ٥٢ .
(٤) سورة المدثر: آية١١.

لجوء قريش إلى إيذاء النبي ﷺ وتعذيب الجماعة المؤمنة:

وجدت قريش أن أساليبها ومفاوضاتها السلمية مع رسول الله ﷺلكي يثنوه عن عن مواصلة الدعوة قد باءت بالفشل،فوقفوا بالمرصاد لأتباعاها، ولاقوهم بشتى صنوف الاضطهاد والتعذيب.

وقد نال النبي ﷺ قسطاً من ذلك رغم حماية بنو هاشم له،حيث لم يسلم من أذاهم، فكان أبو لهب يلقي بالعذرة(٢)والنتن على بابه ﷺ، وعقبة بن أبي معيط يخنقه بثوبه خنقاً شديداً وهو قائم يصلي، ويرمي على ظهره سلا جزور(٣)وهو ساجد(٤).

ولما سئل عبد الله بن عمرو بن العاصت عن أشد ما صنع المشركون برسول الله ﷺ، قال: « بينا رسول الله ﷺ يصلي بفناء الكعبة، إذ أقبل عقبة بن أبي معيط، فأخذ بمنكب رسول الله ﷺ، ولوى ثوبه في عنقه، فخنقه خنقاً شديداً، فأقبل أبو بكرت فأخذ بمنكبه ودفع عن رسول الله ﷺ وقال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾(٥) »(٦).

وأخرج البزار(٧)من حديث أنس بن مالك ت أنهم «ضربوا رسول الله ﷺ يوماً حتى غشي عليه، فقام أبو بكر فقال: أي ويلكم أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله ؟.. فتركوه وأقبلوا على أبي بكر ت ».

أما أتباع النبي ﷺ، فقد صبَّت قريش غضبها عليهم، ولم يتوقف إيذاؤها للمستضعفين والعبيد منهم، بل اضطهدت وعذبت الأغنياء والأحرار، فهذا أبو بكر ت اجتمعت عليه قريش في المسجد لما جهر بدعوته إلى الله،فداسوه بأقدامهم وضربوه بنعالهم ضرباً شديداً على وجهه حتى فقد وعيه،«وحملت بنو تيم أبا بكر في ثوب حتى أدخلوه منزله ولا يشكون في موته».

وهذا طلحة بن عبيد ت،لما علم بإسلامه نوفل بن خويلد شد وثاقه في حبل وسحبه في طرقات مكة، ثم ذهب به إلى دار أبي بكرت، فأوثقه مع طلحة في حبل وأخذ يطوف بهما في طرقات مكة يسخر منهما الصبيان والعبيد، ومن يومها سُمي أبا بكر وطلحة ب ب«القرينين»(٨).

---

(١) ابن هشام: السيرة ٢٧٠/١، ٢٧١.
(٢) فضلات الحيوان. ابن الأثير: النهاية ٩٩٣/٢.
(٣) مشيمة الناقة التي تحرج مع الوليد عند ولادته. ابن الأثير: النهاية ٩٨٦/٢.
(٤) البخاري: الصحيح (٣٦٤١) ١٣٩٩/٣، (٣٤٧٥) ١٣٤٥/٣، (٣٠١٤)١١٦٣/٣.
(٥) سورة غافر: آية ٣٨.
(٦) البخاري: الصحيح (٤٥٣٧) ٤/ ١٨١٤.
(٧)المسند ٥٨/١٤، رواه البخاري مختصراً: الصحيح (٣٦٤٣) ١٤٠٠/٣.
(٨)سيرة ابن هشام ٧٠٩/١.

أما الزبير بن العوام ت عندما سمع عمه بإسلامه، أقسم إن لم يعد إلى دينه ليحرقنه، ولكن الزبير أبى إلا الإسلام، فحبسه عمه في حجرة مظلمة، وشد وثاقه، ودخن عليه حتى ملأ الحجرة دخاناً فضاقت عليه أنفاسه، فظن أنه ميت لا محالة، وصبر الزبير ت لقضاء الله وأبى أن يرتد عن الإسلام، وكان عمره آنذاك اثنتا عشرة سنة، وقيل: ثمان سنين(١).

إلا أن إيذاء قريش للموالي والعبيد كان أشد قسوة، فبلال بن رباح ت يُحرم الطعام والشراب، ويجرد من ملابسه في أشد ساعات النهار حرارة وقيظاً، ثم يطرح على ظهره فوق رمال مكة التي غدت كالجمر، ويضعون فوق صدره صخرة عظيمة، ويقول له سيده أمية بن خلف: ستظل هكذا أو تكفر بمحمد، فيرد عليهم بقوله:« أحد أحد»، ثم يضع أمية في عنقه حبلاً، ويأمر الصبيان فيجرونه، وظل هكذا إلى أن اشتراه أبو بكر الصديق ﷺ بسبع أواقي(٢) وأعتقه (٣).

وآل ياسر (ياسر وزوجه سمية وابنهما عمار) ﭫ كانوا يضعون الأغلال في أيديهم وأرجلهم ويسرفون في ضربهم بالسياط، حتى إذا اشتد الحر أخذوهم بالعذاب في رمضاء مكة، وقد مر بهم رسول الله ﷺ وهم على هذه الحال،وقال لهم:«صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة». وفي نهاية الأمر ماتت سمية بحربة أبي جهل فتوجت بذلك أول شهيدة في الإسلام، أما ياسر فمات بعدها تحت وطأة التعذيب(٤).

ومنهم خباب بن الأرت ﭬ وكان حداداً، فما أن علمت سيدته (أم أنمار) الخزاعية بإسلامه أوثقته في عمود من البيت، ثم حمت الحديد على النار ووضعته على رأسه، بل يقص خباب نفسه مشهداً من هذا العذاب،فيقول:« لقد رأيتني يوماً وقد أوقدوا لي ناراً ووضعوها على ظهري فما أطفأها إلا ودك ظهري: أي دهنه»(٥).

ومنهم عامر بن فهيرة التيميّ ﭬ أحد المستضعفين، كان يعذب بمكة ليرجع عن دينه حتى اشتراه أبو بكر ﭬ فأعتقه(٦).

---

(١) ابن حجر: الإصابة (٢٧٩٦) ٤٥٧/٢.
(٢) معيار للوزن يعادل سبعة مثاقيل من الذهب، أو أربعين درهماً من الفضة. المقريزي: النقود القديمة الإسلامية ص١٥٨، بدر المغيري: التنظيمات المالية ص٣٤٧.
(٣) ابن هشام: السيرة ٦٣١/١، البلاذري: أنساب الأشراف ١٨٦/١.
(٤) ينظر: ابن هشام: السيرة ٣١٩/١، الحاكم: المستدرك (٥٦٦٦) ٤٣٨/٣،قال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، الصالحي: سبيل الهدى ٣٦٠/٢.
(٥) الأصبهاني: حلية الأولياء ١٤٣/١، البلاذري: أنساب الأشراف ١٧٩/١، الصالحي: سبيل الهدى ٣٥٩/٢.
(٦) ابن سعد: الطبقات ١٧٣/٣،البلاذري: أنساب الأشراف ١٩٤/١،ابن حجر: الإصابة (٤٤٣٣) ٤٨٢/٣.

ومنهم أبو فكيهة رضي الله عنه أسلم حين أسلم بلال، أخذه أمية بن خلف فربط في رجله بقيد من حديد حبلاً وأمر به فجر ثم ألقاه في رمضاء مكة، ثم يُأتى بالصخرة فتوضع على ظهره حتى لا يعقل، ثم يقوم بخنقه ومعه أخوه أبي بن خلف، يقول:زده، فلم يزل على ذلك حتى ظن أنه مات، فمرّ به أبو بكر الصديق رضي الله عنه وهو على هذا الحال فاشتراه وأعتقه (١).

ومنهم زنيرة الرومية رضي الله عنها، وتعدفي السابقات إلى الإسلام، وكانت ممن يعذّب في الله، وهي مذكورة في السبعة الذين اشتراهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه وأنقذهم من التعذيب، وأصيبت في بصرها حين أعتقها، فقالت قريش: ما أذهب بصرها إلا اللات والعزى، فقالت: كذبوا وبيت الله ما يغني اللات والعزى، ولا ينفعان، فردّ الله إليها بصرها(٢).

ومنهم أمة بني زهرة أم عبيس ل، أحد السابقين إلى الإسلام. كان الأسود بن عبد يغوث يعذبها، فابتاعها منه أبو بكر ت وأعتقها(٣).

ومنهم لبيبةجارية بني المؤمل بن حبيب ل، من السابقين إلى الإسلام،كانت أحد من يعذب من المستضعفين، اشتراها كذلك أبو بكر وأعتقها(٤).

---

(١) ابن سعد: الطبقات ٩٢/٤، البلاذري: أنساب الأشراف ١٩٥/١، ابن حجر: الإصابة (١٠٣٩٧) ٢٦٨/٧.

(٢) ابن سعد: الطبقات٢٠١/٨، البلاذري: أنساب الأشراف١٩٦/١، ابن حجر: الإصابة (١١٢٢٢)١٥١/٨.

(٣) البلاذري: أنساب الأشراف ٤٣٤/٨، ابن حجر: الإصابة (١١٢٢٢) ١٥١/٨.

(٤) االبلاذري: أنساب الأشراف ١٩٦/١، ابن حجر: الإصابة (١١٧٠٥) ٣٠١/٨.

٨- وسائل النبي ﷺ لإعانة الصحابة على تحمل العذاب

لم يترك النبي ﷺ أصحابه ولم يتخل عنهم في هذا الموقف العصيب، حيث أخذ يدعمهم روحياً ومعنوياً، لتقوى نفوسهم على تحمل هذا الإيذاء، وكان من أهم وسائله في تحقيق هذا المقصد:

التربية على الصبر وتزكية النفس:سعى الرسول ﷺ إلى حمل الصحابة في هذه المرحلة على الصبر وتزكية نفوس هذه الفئة المؤمنة، لترتقي أرواحهم وتتحرر من إسار الغرائز والشهوات، ومن ثم تقوى على مواجهة الشدائد والمحن.

وقد نزلت سورة المزمل خصيصاً لهذا الغرض، حيث قررت للنبي ﷺ وأصحابه صلاة الليل ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٢﴾ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾ (١)، فقام النبي ﷺ وصحابته الكرام الليل قرابة عام حتى تورمت أقدامهم، ولما علم الله ﷻ منهم اجتهادهم في طلب رضاه، وحرصهم على إنفاذ أمره، رحمهم بالتخفيف فأنزل قوله تعالى : ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ﴾(٢)(٣).

التربية بالاعتبار من تجارب الرسل والأمم السابقة:يقول عروة بن الزبير:«كل شيء نزل على رسول الله ﷺ من القرآن فيه ذكر الأمم والقرون وما يثبت به الرسول، فإنما نزل بمكة..»(٤)، فقد شاءت الحكمة الإلهية أن تتنزل في المرحلة المكية السور والآيات المتعلقة بقصص الأنبياء وجهادهم في دعوة أقوامهم، والمقصد من ذلك: أن يتدبر الصحابة من خلال هذا القصص ما جرى عليهم من السنن التي جرت على الذين من قبلهم ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمۡ وَيَهۡدِيَكُمۡ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ (٥)، ومن ثم يحصل لديهم التأسي بهم والاعتبار بحالهم، وبالتالي تثبت قلوبهم وأفئدتهم أمام اضطهاد قريش لهم،وهذا المعنى المشار إليه في قوله تعالى : ﴿وَكُلّٗا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾.

---

(١)سورة المزمل: آية ١: ٦.
(٢) سورة المزمل: آية٢٠.
(٣) الحاكم: المستدرك (٣٨٦٤) ٥٤٨/٢، قال عنه: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. أبو داود: السنن (١٣٤٢) ٤٢٦/١، صححه الألباني.
(٤) ابن إسحاق: السيرة النبوية ص٢٧٥.
(٥) سورة النساء: آية ٢٦.

وقد تجلى هذا المعنى في حوار النبي ﷺ مع خباب بن الأرت ت، لما سأله أن يدعو الله أن يخفف عذاب المستضعفين بمكة، فرد عليه النبي ﷺ بقوله:« لقد كان من قبلكم ليمشط بمشاط الحديد ما دون عظامه من لحم أو عصب، ما يصرفه ذلك عن دينه، ويوضع المنشار على مفرق رأسه فيشق باثنين، ما يصرفه ذلك عن دينه..»(١).

التربية على العفو وضبط النفس:كان ضمن وسائل التربية التي اعتمدها النبي ﷺ تجاه الصحابة في مكة، حثهم على العفو حيال من آذاهم من المشركين، حتى ولو تسنى لأحدهم فرصة الانتقام أو الثأر لنفسه، فيروي ابن عباس ت:« أن عبد الرحمن بن عوف وأصحاباً له أتوا النبي ﷺ، فقالوا: يا نبي الله كنا في عز ونحن مشركون، فلما آمنا صرنا أذلة. قال ﷺ: «إني أمرت بالعفو فلا تقاتلوا القوم. فلما حوله الله إلى المدينة أمره الله بالقتال فكفوا، فأنزل الله ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ ﴾ (٢)..»(٣).

وقد أراد النبي ﷺ بذلك توطين نفوس الفئة المؤمنة وحملها على ضبط النفس، الأمر الذي يمكّن كل فرد من أفرادها التجرد من النزعة الذاتية الفردية، وأن يتجاوزها إلى النظرة الكلية التي تصب في النهاية لصالح الدعوة(٤). وثمة فائدة أخرى لهذا الأسلوب النبوي في الحوار، وهي عصمة الدعوة وحمايتها من الدخول في صراع غير متكافئ مع قريش، قد يفضي إلى آثار سلبية على مسيرتها في هذه المرحلة الحرجة.

التربية على بث الأمل في النفوس:لكي تقوى النفس على الصبر فبسبيل شحذ الهمم والتحلي بالأمل، فليس أشد على الفرد من أن يتملكه اليأس فيحول دون تحقيق غاياته وآماله المشروعة في هذه الحياة، وهذا الأسلوب كان يتوخاه النبي ﷺ مع الصحابة في مكة، والشواهد على ذلك عديدة، منها: قوله لخباب بن الأرت ت لما كاد أن يتمكن منه اليأس بفعل ما كان يلقاه من عذاب:«..وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا الله»(٥). كما نلمس ذلك حين كان ﷺ يمر على آل ياسر وبنو مخزوم يعذبونهم برمضاء مكة، فبشرهم بقوله:«صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة». وكذا موقفه ﷺ لما كان يطوف يوماً بالبيت مع أصحابه، فتحرش بهم نفر من قريش وآذوهم، فأقبل بوجهه على أصحابه قائلاً لهم:« أبشروا، فإن الله عز وجل مظهر دينه، ومتمم كلمته، وناصر نبيه»

---

(١) البخاري: الصحيح (٣٤١٦) ١٣٢٢/٣.
(٢) سورة النساء: آية ٧٧.
(٣) الحاكم: المستدرك (٢٣٧٧) ٧٦/٢، قال عنه: صحيح على شرط البخاري، النسائي: السنن (٣٠٨٦) ٢/٦، السيوطي: أسباب النزول ص٦٠.
(٤) طيب برغوتي: منهج النبي في حماية الدعوة ص٣٧١، صبحي عبد الحميد: نظرات في الحرب الحديثة ص٣٦٨ .
(٥) البخاري: الصحيح (٣٤١٦) ١٣٢٢/٣.

لين الجانب في التعامل مع أزمات الصحابة ومعاناتهم:كان النبي ﷺ يدرك أن الصحابة ليسوا في مستوى واحد من حيث القدرة على تحمل الإيذاء، فربما انهارت عزائم بعضهم وخارت أمام تعذيب قريش لهم، وصدر منهم عن غير قصد ما يجافي صحيح الدين والعقيدة، وهنا كان على النبي ﷺ أن يستوعب ذلك رحمة بهم وإشفاقاً على حالهم، لأن ما لاقوه كان فوق احتمالهم، وقد راعى هذا الأمر مثلاً مع عمار بن ياسر تلما عذبه المشركون فلم يتركوه حتى سب النبي ﷺ وذكر آلهتهم بخير، فلما أتاه الرسول الله ﷺ وسأله عما بدر منه ؟، قال: شر يا رسول الله، ما تُرِكت حتى نلت منك وذكرت آلهتهم بخير، فقال له ﷺ:« كيف تجد قلبك؟» قال: مطمئن بالإيمان، قال: «إن عادوا فعد»(١).

---

(١) الحاكم: المستدرك (٣٣٦٢) ٣٨٩/٢. قال عنه الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

٩ـ الهجرة إلى الحبشة

لما كثر الداخلون في الإسلام، وتحدث الناس به، أخذت قريش توغل في تعذيب المؤمنين واضطهادهم، بغية فتنتهم عن دينهم حتى بلغ الأمر ذروته مع أواسط السنة الخامسة من البعثة، ولم يبق بعد ذلك إلا هلاكهم وفناء هذا الدين، لذا أرشدهم الرسول ﷺ للخروج إلى أرض الحبشة، مخافة الفتنة، وفراراً بدينهم، وبذلك عدت هجرتهم إلى الحبشة أول هجرة في الإسلام(١).

سبقت هجرة الصحابة إلى الحبشة تهيئة قرآنية نفسية، تمثلت في عرضه لقصة أصحاب الكهف الذين اعتزلوا قومهم مخافة الفتنة في الدين ﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا﴾ (٢). ثم نزلت من بعدها سورة الزمر لتؤكد هذا المعنى، وترشدهم إلى أنه إذا كانت مكة قد ضاقت بهم، فأرض الله واسعة، فليهاجروا إلى أيها وجدوا فيها المأمن على أنفسهم ودينهم، يقول تعالى: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۗ وَأَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ (٣).

وجدير بالذكر إن اختيار الرسول الكريم ﷺ للحبشة لتكون داراً لهجرة المسلمين الأولى،كان لجملة أسباب هي:

أولاً: عدل النجاشي فهو «ملك لا يظلم عنده أحد»(٤)، أو حسب وصف عروة بن الزبير«ملك صالح..لا يظلم أحد بأرضه»(٥).

ثانياً: بُعد الحبشة عن سطوة قريش من جانب وهي لا تدين لقريش بالاتباع كغيرها من القبائل(٦).

ثالثاً: اعتقاد النجاشي الصحيح في ذات المسيح، والذي من المرجح أن يكون النبي ﷺ على علم به، ويظهر ذلك ـ كما سيتضح – لما ذكر النجاشي لجعفر بن أبي طالب ت أن اعتقاده في ذات المسيح يتطابق مع العقيدة الإسلامية، وهو أنه عبد الله ورسوله، ولاشك أن ذلك زاد من تعاطف النجاشي وعنايته بالمهاجرين من الصحابة.

---

(١) ابن هشام: السيرة ٣٢٢/١، ٣٢٣، ابن سعد: الطبقات ١٥٩/١.
(٢) سورة الكهف: آية ١٦.
(٣) سورة الزمر: آية ١٠.
(٤) ابن هشام: السيرة ٣٢١/١.
(٥) الطبري: التاريخ ٥٤٦/١.
(٦) الصلابي: السيرة النبوية ٢٢٧/١.

وتجدر الإشارة إلى أن معرفة النبي ﷺ بالحبشة وملكها وأحوالها، ربما استقاها عن المحيطين به من الصحابة الأحباش، مثل: بلال بن رباح وحاضنته أم أيمن(١). أو من خبراته في ممارسة التجارة، حيث كانت الحبشة مقصداً لرحلة الشتاء كما سيتضح. ويظهر من الروايات أن رحلة المسلمين إلى الحبشة قامت على مرحلتين:

المرحلة الأولى:وكانت في رجب سنة خمس من المبعث، وضمت ١٢رجلاً، و٤ نسوة، وهم:عثمان بن عفان وزوجته رقية بنت النبي ﷺ. وقال النبي ﷺ عنهما:«أول بيت هاجر بعد إبراهيم ولوط»(٢)، وكذا أبو حذيفة، وامرأته سهلة بنت سهيل، وأبو سلمة وامرأته أم سلمة هند بنت أبي أمية، والزبير بن العوام، ومصعب بن عمير، وعبد الرحمن بن عوف، وعثمان بن مظعون، وعامر بن ربيعة، وامرأته ليلى بنت أبي حثمة، وأبو سبرة بن أبي رهم، وحاطب بن عمرو، وسهيل بن وهب، وعبد الله بن مسعود.

خرج هؤلاء جميعاً متسللين سراً، فوفق الله لهم ساعة وصولهم إلى مرفأ الشعيبة(٣) سفينتين للتجار، فحملوهم فيهما إلى أرض الحبشة مقابل نصف دينار. وأقاموا فيها إلى أن أشيع كذباً أن قريشاً أسلموا وكفوا أذاهم عن النبي ﷺ(٤)، فعاد المسلمون من الحبشة إلى مكة في شوال من نفس السنة فرحين مستبشرين.

---

(١) يقول أنس بن مالك رضي الله عنه:«كانت وصيفة لعبد الله بن عبد المطلب وكانت من الحبشة..». مسلم: الصحيح (٤٧٠٢) ١٦٢/٥.

(٢) ابن حجر: الإصابة (١١١٨٧) ١٣٩/٨، الذهبي: تاريخ الإسلام ١٨٤/١.

(٣)الشّعيبة: مرفأ مكة ومرسى سفنها قبل جدة،وتقع اليوم جنوب جدة على مسافة حوالي ٦٨ كيلاً.شراب: المعالم الأثيرة ص١٥١.

(٤) يعود أصل هذا الخبر إلى أنه في رمضان من نفس السنة خرج النبي على جموع من المسلمين وسادات المشركين في البيت الحرام، فأخذ يتلو فيهم سورة النجم، فانجذب المشركون بشدة لسماع هذه الآيات متأثرين في ذلك بروعة البيان القرآني، خاصة وإنهم لم يكونوا سمعوا كلام الله قبل ذلك، حيث تواصى بعضهم بعضاً ألا يسمعوا للقرآن ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ٢٦﴾ سورة فصلت. حتى إذا تلا خواتيم هذه السورة: ﴿فَٱسۡجُدُواْۤ لِلَّهِۤ وَٱعۡبُدُواْ۩ ٦٢﴾ سورة النجم، ثم سجد، لم يتمالك أحد نفسه حتى خر ساجداًبما فيهم المشركين. ويدل على ذلك ما أورده البخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنه: « أن النبي سجد بالنجم وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس» فاشتد عليهم اللوم والتقريع ممن لم يحضر هذا المشهد من المشركين، وعند ذلك كذبوا على رسول الله وافتروا عليه أنه أثنى على أصنامهم وعظم من شأنها، وأنه قال عنها: «تلك الغرانقة العلى، وإن شفاعتهن لترتجى»، ليعتذروا عن سجودهم مع النبي . أما ما ورد في بعض كتب التفسير والتاريخ من أن رسول الله قرأ سورة النجم، فألقى الشيطان في أمنيته: أي في تلاوته، عند ذكر اللات والعزى، وأنهم لهم الغرانقة العلا وأن شفاعتهم لترتجي، فلا يصح سنداً ولا متناً.ينظر: البخاري: الصحيح (١٠٢١) ٢٦٤/١، ابن سعد: الطبقات ١٦٠/١، الطبري: التفسير ٦٦٣/١٨، ابن كثير: التفسير ٤٤١/٥، المباركفوري: الرحيق المختوم ص٨٢، رزق الله: السيرة النبوية ص١٩٩-٢٠٦.

أما المرحلة الثانية، فقامت لما قدم أصحاب الرحلة الأولى إلى مكة بطشت بهم عشائرهم ولقوا منهم أذى شديداً، ولهذا أذن لهم رسول اللهﷺ ولغيرهم في الخروج إلى أرض الحبشة مرة ثانية، وبلغ عدد من هاجر في هذه الرحلة ٨٣ رجلاً، و١٨ امرأة، تحت قيادة جعفر بن أبي طالبت، ونجحوا في الوصول إلى الحبشة بعد أن أفلتوا من قبضة قريش(١).

لم تقف قريش مكتوفة الأيدي حيال هجرة المسلمون إلى الحبشة، حيث أرسلوا إلى النجاشي وفداً ممثلاً في عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة، وحملا معهما كثيراً من الهدايا إلى النجاشي وبطارقته، وقالوا للنجاشي: إنه لجأ إلى بلادكم غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينكم، وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا إليك أشراف قومهم لتردهم إليهم.

ويقتضي المقام أن نتساءل.. لماذا أرسلت قريش هذا الوفد لاستعادة الصحابة من الحبشة، مع أن هجرتهم مثلت في ظاهرها انتصاراً للمشركين وتخفيفاً لأعباء مواجهتهم للجماعة المؤمنة في مكة ؟.

في الحقيقة ارتبطت مكة مع الحبشة بصلات تجارية قديمة منذ أن كانت ضمن محطات رحلة الشتاء التي سنَّها جد النبي ﷺ هاشم بن عبد مناف(٢)، يقول عروة ابن الزبير:«..وكانت أرض الحبشة متجراً لقريش، يتجرون فيها، يجدون فيها رفاها من الرزق وأمناً، ومتجراً حسناً..»(٣). ومن ثم لجأت إلى إرسال هذا الوفد خشية من أن يؤثر تواجد المسلمين في الحبشة سلباً على مكتسباتهم فيها. فضلاً عن أن قريشاً تدرك أن الحبشة مملكة قوية ذات بأس، واحتمال انتشار الإسلام فيها سينهض تهديداً لقريش وتجارتها.

على أية حال أبى النجاشي أن يردهم حتى يسمع قولهم، فاستدعاهم ليسألهم عن أمر دينهم ونبيهم، وتظهر النصوص أن الحوار الذي جرى بين النجاشي والمهاجرين كان ذو شقين: الشق الأول، بدأ عندما طلب النجاشي المسلمين إلى لقائه ليسألهم عن نبيهم ودينهم، فيروى ابن إسحاق بإسناد حسن عن أم سلمة - شاهدة عيان الحدث - أنه لما جاءهم رسول النجاشي ليطلبهم إلى لقائه:« اجتمعوا، ثم قال بعضهم لبعض: ما تقولون للرجل إذا جئتموه ؟ قالوا: نقول والله ما علمنا، وما أمرنا به نبينا ﷺ كائناً في ذلك ما هو كائن». فلما سألهم أجابه جعفر بن أبي طالبت بقوله:« أيها الملك كنا قوما أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف

---

(١) ابن هشام: السيرة ٣٣٠/١، ابن سعد: الطبقات ١٦١/١، ١٦٢، ابن قيم: زاد المعاد ٢٣/٣.
(٢) ابن سعد: الطبقات ٦٢/١.
(٣) الطبري: التاريخ ٥٤٦/١.

وكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا نبياً من أنفسنا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام..»(١) .

إذا تأملنا هذا النص، سنجد أن النجاشي كان بإمكانه أن يستجيب إلى مطلب قريش التي تربطها بالحبشة علاقات تجارية وثيقة، ولكنه آثر بعدله وحكمته أن يتعرف إلى هذا الدين،الأمر الذي هيأ الأجواء للحوار مع النجاشي ودعوته إلى الله.

أما عن موقف جعفر بن أبي طالب ت الداعي من خلاله إلى الإسلام؛ فيظهر النص أن حصاد التربية النبوية له وغيره من الصحابة في مكة، قد تجلت في حواره مع النجاشي؛ فعلى الرغم من ضعف وهوان حالهم، وبالرغم من أن هذا الحوار قد يعرضهم لسوء العاقبة، فإن ذلك لم يمنعهم من تبليغ رسالتهم إلى رأس النصرانية بالحبشة دون خوف أو وجل، ولنتأمل ذلك في قول أم سلمة ل:« ثم قال بعضهم لبعض: ما تقولون للرجل إذا جئتموه ؟. قالوا: نقول والله ما علمنا، وما أمرنا به نبينا ﷺ كائنا في ذلك ما هو كائن ». ما كان من جعفر بن أبي طالبت إلا أن عرض لحقيقة هذا الدين من خلال كلمات جامعة تقطر بالبلاغة والبيان، ثم أنهى جعفر بن أبي طالبت حديثه بتلاوة صدر من سورة مريم.

والحقيقة إن اختيار جعفر ت لآيات هذه السورةكي يتلوها على النجاشي وبطارقته، لينم عن جليل فطنته في الدعوة إلى الله، حيث بدأ ببيان المشترك الذي اجتمع حوله الإسلام والمسيحية ممثلاً في محنة مريم وقصة ميلاد المسيح عليه السلام، قاصداً بذلك إعلامهم بما يكنه الإسلام من تقدير للمسيح وأمه عليهما السلام، الأمر الذي هيأ نفوس القوم لمعرفة المزيد عن هذا الدين، ولهذا لما تلا عليهم هذه الآيات وجد لها صداً عظيماً في نفوسهم، حيث اخضلت لحاهم من البكاء مما سمعوا من الحق، بل تجلت آثار ذلك في قول النجاشي:« إن هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة انطلقا فلا والله لا أسلمهم إليكما..»(٢).

ولكن هذه الأجواء المفعمة بالوئام والمودة لم تلبث أن تعرضت لمنعطف أخطر من سابقه، كونه يتعلق ببيان موقف عقيدة الإسلام من ذات المسيح، فتذكر أم سلمة ل أن عمرو بن العاص وشى بهم للنجاشي وشاية عظيمة، فقال له: «أيها الملك، إنهم يقولون في عيسى ابن مريم قولاً عظيماً»، فأرسل إليهم النجاشي ليسألهم عن ذلك.

---

(١) ابن هشام: السيرة ٣٣٢/١- ٣٣٥، ابن سعد: الطبقات ٣٣٣/١، ٣٣٤، ابن قيم: زاد المعاد ٢٣/٣، الذهبي: تاريخ الإسلام ١٩٣/١.

(٢)ابن هشام: السيرة ٣٣٦/١، ٣٣٧.

هنا أدرك الصحابة أنهم في شدة عظيمة، تقول أم سلمة: «ولم ينزل بنا مثلها قط» فاجتمعوا وقال بعضهم لبعض:« ماذا تقولون في عيسى ابن مريم إذا سألكم عنه ؟ قالوا: نقول والله ما قال الله، وما جاءنا به نبينا، كائناً في ذلك ما هو كائن». فلما دخلوا على النجاشي قال لهم: ماذا تقولون في عيسى ابن مريم ؟.فرد عليه جعفر بن أبي طالبت:« نقول فيه الذي جاءنا به نبينا ﷺ، يقول: هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول». فوضع النجاشي يده إلى الأرض وأخذ منها عوداً، ثم قال: والله ما عدا عيسى ابن مريم ما قلت هذا العود..»(١). فأنجاهم الله بقول الحق وصدق العقيدة، إذ شرح الله صدر النجاشي لهذا القول.

والتساؤل الذي يطرح نفسه الآن.. هل من تفسير أو تعليل لقول النجاشي ومعتقده في ذات المسيح، الذي ظهر من خلال حواره مع جعفر بن أبي طالب؟.

ذهب (بودلي)(٢) إلى أن نصارى الحبشة « كانوا مسيحيين نسطوريين». والنساطرة: فرقة من فرق النصارى، تنتسب إلى (نسطور) الذي نصب بطريركا لكنيسة القسطنطينية أربع سنوات، وكان مذهبه أن مريم العذراء لم تلد الإله، بل ولدت فقط الإنسان، ومن مقولاته الدالة على معتقده أيضاً:«لن أدعو أبداً طفلاً عمره شهرين أو ثلاثة الله»(٣).

كما تتضح عقيدة (نسطور) في ذات المسيح في الرسالة الثانية التي أرسلها إليه الأب (كيرلس)، لكي يثنيه عن معتقده فجاء فيها «..إن كنت تعتقد أنه نبي كموسى، فما قدر موسى ولا أحد من الأنبياء أن يحمل خطايا العالم»(٤).

أما (ساويرس بن المقفع)(٥) فأوضح عقيدة (نسطور) بشكل أكثر جلاء فقال:«هذا نسطور قد شتت البيعة..إذ قال إن المسيح إنسان فقط، وأنه نبي لا غير، وقد جاء إلى العالم أنبياء كثير ولم يُعبد أحد منهم..». إذن فمعتقد نسطور ومن تبعه أن عيسى لم يكن ابناً لله، بل نبي بشر(٦). وفي ضوء هذا السياق يمكننا تفسير قول النجاشي وتعليل معتقده في ذات المسيح.

---

(١) ابن هشام: السيرة ٣٣٨/١.
(٢) الرسول «حياة محمد» ص ٢٣٦.
(٣) **الأب جان كمبي: تاريخ الكنيسة١/١٢٧، الأنبا بيشوى: السجالات الكريستولوجية في القرنين الرابع** والخامس www.metroplit/bishoy.org/files/Christology/ar.doc. **وهذا المقولة نقلت عن كتاب « التاريخ الكنسي » للمؤرخ المسيحي (سقراط) والذي عاصر أحداث مجمع إفسوس.**
(٤) تاريخ الآباء البطاركة ٦٠/١.
(٥)تاريخ الآباء البطاركة ٦٠/١.
(٦) ولمزيد من المعرفة عن تاريخ هذا المذهب ينظر: محمد أبو زهرة: محاضرات في النصرانية ص١٨٦: ١٨٨، أحمد شلبي: النصرانية ص١٦٠، ١٦١.

على أية حال ظل الصحابة مقيمون في الحبشة إلى أن سمعوا بهجرة رسول الله ﷺ إلى المدينة، فرجع منهم ٣٣ رجلاً ومن النساء ٨ نسوة، فمات منهم رجلان بمكة، وحبس بها ٧ نفر، وشهد منهم بدرا ٢٤ رجلاً، فلما كان شهر ربيع الأول سنة سبع من الهجرة إلى المدينة أرسل رسول الله ﷺعمرو بن أمية الضمري ت بكتاب إلى النجاشي يدعوه فيه إلى الإسلام، فلما قرئ عليه الكتاب أسلم، وقال: لو قدرت أن آتيه لأتيته. وكتب إليه رسول الله ﷺ أن يزوجه أم حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب، وكانت فيمن هاجر إلى أرض الحبشة مع زوجها عبيد الله بن جحش فتنصر هناك ومات، فزوجه النجاشي إياها وأصدق عنه أربعمائة دينار. وكتب إليه رسول الله ﷺ أن يبعث إليه بمن بقي عنده من أصحابه ففعل، وحملهم في سفينتين مع عمرو بن أمية الضمري، حتى قدموا المدينة سنة سبع من الهجرة، فوجدوا رسول الله ﷺ بخيبر، فشخصوا إليه فوجدوه قد فتح خيبر، فكلم رسول الله ﷺ المسلمين أن يقسموا لهم مما غنموه ففعلوا(١).

(١)ابن هشام: السيرة ٢٢٣/١، ابن سعد: الطبقات ١٦٢/١، ابن قيم: زاد المعاد ٢٦/٣.

١٠- إسلام حمزة بن عبد المطلب

في ظل الظلم والطغيان الذي أحاط بالمسلمين في مكة، بدت بشائر الفرج تلوح في الأفق، حيث كان إسلام حمزة بن عبد المطلب ت، والذي جاء سابقاً على إسلام عمر بثلاثة أيام(١). وعن أمر إسلامه يذكر ابن إسحاق أن أبا جهل مر برسول الله ﷺ عند الصفا فآذاه وسبه، فلم يكلمه رسول الله ﷺ وعاد إلى بيته، ولم يلبث أن عاد حمزة بن عبد المطلب ﷺعائداً من الصيد متوشحاً قوسه، وكان إذا رجع من قنصه لم يصل إلى أهله حتى يطوف بالكعبة، فأخبر بما لقيه النبي ﷺ من أبي الحكم بن هشام من سب وإيذاء، فاحتمله الغضب، فخرج يسعى حتى دخل المسجد، فنظر فإذا بأبي جهل جالساً في القوم، فأقبل نحوه فضربه بقوسه فشجه شجة منكرة، ثم قال له: أتشتم محمداً وأنا على دينه أقول ما يقول ؟. فقامت رجال من بني مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل، فقال أبو جهل: دعوا أبا عمارة فإني والله قد سببت ابن أخيه سباً قبيحاً(٢).

***

وثمة ما يشير إلى أن دفاع حمزة عن النبي ﷺ في هذا الموقف لم يكن لنصرة الإسلام، بل حميّة للنبي ﷺ وعصبية له، إذا سرعان ما تملكه الندم على إعلان إسلامه ومفارقة دين آبائه، وفي هذا يقول: «وبت من الشك في أمر عظيم لا أكتحل بنوم ثم أتيت الكعبة، وتضرعت إلى الله سبحانه أن يشرح صدري للحق ويذهب عني الريب، فما استتممت دعائي حتى زاح عني الباطل وامتلأ قلبي يقيناً، فغدوت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته بما كان من أمري، فدعا لي بأن يثبتني الله »(٣). على أية حال لما أسلم حمزةتعرفت قريش أن رسول الله ﷺ قد عز وامتنع، فكفوا عن بعض ما كانوا ينالون منه(٤).

أما عن إسلام عمر ت فجاء استجابة لدعاء النبي ﷺ :«اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب»(٥)، وكان توقيت إسلامه لما قدم عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة على قريش من رحلة الحبشة(٦).

(١) الصالحي: سبيل الهدى ٩٠/١١.
(٢) ابن هشام: السيرة ٢٩١/١، الصالحي: سبيل الهدى ٣٣٣/٢.
(٣) السهيلي: الروض الأنف ٥٩/٣، الصالحي: سبيل الهدى ٣٣٣/٢.
(٤) ابن هشام: السيرة ١٩٢/١، لصالحي: سبيل الهدى ٣٣٣/٢.
(٥) الحاكم: المستدرك (٤٤٨٤) ٨٩/٣.قال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه وقد صح شاهده عن عائشة بنت الصديق رضي الله عنها، وصححه الذهبي.
(٦) ابن هشام: السيرة ٤٣٢/١.

أما عن قصة إسلامه فبدأت عندما خرج يوماً متوشحاً سيفه يريد رسول الله ﷺ، فلقيه نعيم بن عبد الله، فقال له: أين تريد يا عمر ؟، فقال: أريد محمداً هذا الصابئ الذي فرق أمر قريش، وسفه أحلامها، وعاب دينها، وسب آلهتها، فأقتله، فقال له: نعيم والله لقد غرتك نفسك من نفسك يا عمر أترى بني عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلت محمداً ؟، أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم ؟ فأخبره بإسلام أخته فاطمة بنت الخطاب ل وزوجها سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل.

رجع عمر عامداً إلى بيت أخته فاطمة وزوجها وعندهما خباب بن الأرت يقرئهما صحيفة فيها بعضاً من سورة « طه »، فلما سمعوا حس عمر تغيب خباب في جانب من البيت، وأخذت فاطمة الصحيفة فخبأتها، فلما دخل عمر سألهما عما أخبر به من أنهما قد تابعا محمداً على دينه، فبطش بسعيد بن زيد، فقامت إليه أخته فاطمة لتكفه عن زوجها، فضربها فشجها، فلما فعل ذلك قالت له أخته وزوجها: نعم قد أسلمنا، وآمنا بالله ورسوله فاصنع ما بدا لك.

فلما رأى عمر ما أصاب أخته ندم على ما صنع، وأراد أن يقرأ ما بالصحيفة من الآيات فأبت إلا أن يغتسل، فلما اغتسل أعطته الصحيفة وفيها: « طه »، فلما قرأ منها صدراً ، قال: ما أحسن هذا الكلام وأكرمه، فلما سمع ذلك خباب خرج إليه وقال له: يا عمر والله إني لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه، فإني سمعته أمس وهو يقول: «اللهم أيد الإسلام بأبي الحكم بن هشام أو بعمر بن الخطاب»، فالله الله يا عمر، فطلب منه عمر أن يدله على مكان النبي ﷺ ليأتي هو يعلن إسلامه، فأرشده إلى دار الأرقم، فتوجه عمر تلقاء هذه الدار،فلما أتاها ووقف على بابها، وعلم بأمره من كان بها من الصحابة، قام حمزة بن عبد المطلب ت وهو يقول: إن كان جاء يريد خيراً بذلناه له، وإن كان جاء يريد شراً قتلناه بسيفه، فأمر رسول الله ﷺ أن يؤذن له بالدخول، ونهض إليه رسول الله ﷺ حتى لقيه، فشده من ردائه بقوة وقال له:« ما جاء بك يا بن الخطاب ؟ فوالله ما أرى أن تنتهي حتى ينزل الله بك قارعة »، فقال عمر: يا رسول الله جئتك لأومن بالله وبرسوله وبما جاء من عند الله، فكبر رسول الله ﷺ تكبيرة عرف أهل البيت من أصحاب رسول الله ﷺ أن عمر قد أسلم.

كان إسلام عمرت فاتحة خير للإسلام والمسلمين، حيث أصبحوا في عزة منذ ذلك اليوم، يقول ابن مسعود ت:«ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر»، وهو ما مكنهم من الصلاة بالبيت الحرام أمام أعين قريش دون رهبة أو خوف، يقول ابن مسعود ت:«إن إسلام عمر كان فتحاً..ولقد كنا ما نصلي عند الكعبة حتى أسلم عمر، فلما أسلم قاتل قريشاً حتى صلى عند الكعبة، وصلينا معه»

وبذلك أصبح المسلمون قوة ظاهرة، وأضحى المجتمع المكي فرقتين، فرقة مسلمة وأخرى مشركة، ولذا لقب الرسول ﷺ عمر بـ«الفاروق»؛ لأن الله فرق به بين الحق والباطل

١١ـ حادث المقاطعة

وفي العام السابع من البعثة، رأت قريش أن أصحاب الرسول ﷺ قد أصابوا أمناً وقراراً في الحبشة، وعز هذا الدين بإسلام عمر ومن قبله حمزة، وأخذ انتشاره يتزايد بين القبائل، لذا اجتمعوا واتفقوا على أن يكتبوا كتاباً يتعاقدون فيه على مقاطعة بني هاشم وبني المطلب، فلا يناكحونهم ولا يبيعونهم ولا يخالطونهم ولا يقبلون منهم صلحاً أبداً، ولا يأخذهم بهم رأفة حتى يسلموا رسول الله ﷺ للقتل، وذلك انتقاماً منهم لدفاعهم عن الرسولﷺ وتعاطفهم معه، وكتبوا بذلك صحيفة علَّقوها في جوف الكعبة، ضماناً لتنفيذ ما بها من بنود(١).

اضطر بنو المطلب وبنو هاشم إلى الخروج من مكة والالتجاء إلى شعب أبي طالب في جبل أبي قُبَيس(٢)،وكانوا لا يستطيعون الخروج منه إلا في الأشهر الحرم، ونفذت قريش الحصار بإحكام، فرصدت العيون على بني هاشم، ولم تترك طعاماً ولا بيعاً يصل إليهم إلا سبقوهم إليه فاشتروه، وكان أبو لهب إذا قدمت العير مكة يأتي أحدهم السوق ليشتري شيئاً من الطعام أو اللباس

لعياله، فيسارع أبو لهب إلى التجار فيأمرهم أن يغالوا على أصحاب محمد حتى لا يدركوا معهم شيئاً، بل يشتري منهم السلعة بأزيد من قيمتها أضعافاً(٣).

طال الحصار على رسول الله وبني هاشم، وظلوا على هذه الحال في الشعب ثلاث سنين،فلا يصل إليهم ممن أراد صلتهم من قريش شيء إلا سراً مستخفياً به. حتى أنفقوا جميع ما يملكون، ولم يبق لديهم شيء من مال أو طعام، فأنفقت خديجة ل كل ما تملك، وأنفق أبو طالب ما عنده، وأنفق كل بني هاشم ما لديهم، وكادوا يهلكون جوعاً حتى أكلوا أوراق الشجر وكل ما ظنوه يسد رمقهم، يقول سعد بن أبي وقاص ت:«خرجت ليلة لأبول فسمعت قعقعة تحت البول، فإذا قطعة من جلد بعير يابسة فأخذتها وغسلتها، ثم أحرقتها ثم رضضتها، وسففتها بالماء فقويت بها ثلاثاً»

كان بعض العقلاء وأهل المروءة من المشركين، وعلى رأسهم: زهير بن أمية المخزومي، والمطعم بن عدي، وزمعة بن الأسود، وأبو البختري بن هشام، وهشام بن عمرو بن الحارث، غير راضين عن هذا الصنيع الشنيع من قريش، فأخذوا يتشاورون فيما بينهم لفك الحصار عن بني المطلب وبني هاشم، وتعاهدوا على نقض هذه الصحيفة.

---

(١) ابن هشام: السيرة ٣٥١/١.
(٢)أحد الجبال المحيطة بمكة، ومن أشهر جبالها وليس من أكبرها، يشرف على الكعبة من جهة المشرق. البلادي: معجم المعالم الجغرافية ص٢٤٩.
(٣) السهيلي: الروض الأنف ٢١٧/٣.

ولهذا قام زهير بن أمية ونادى:«يا أهل مكة. إنَّا نأكل الطعام، ونشرب الشراب، ونلبس الثياب، وبنو هاشم هلكى، والله لا أقعد حتى تُشَقَّ هذه الصحيفة القاطعة والظالمة». حاول أبو جهل أن يثنيهم عن عزمهم ولكن دون جدوى، وقام المطعم بن عدي ليشق الصحيفة فوجد الأرضة قد أكلتها، ولم يبق منها إلا «باسمك اللهم»، ومزقت الصحيفة وبطل ما فيها، وخرج بنو هاشم، وبنو المطلب من شعبهم، وخالطوا الناس وأخذوا يستعيدون نشاطهم ويكثر أنصارهم(١).

وعلى الرغم من قسوة الحصار وشدة وطأته على النبي ﷺ ومن معه من المسلمين، لم يثن ذلك الرسول ﷺ عن نشر دعوته، فكان يخرج يدعو قومه في كل وقت وحين(٢).

---

(١) ابن هشام: السيرة ٣٥٤/١.
(٢) ابن هشام: السيرة ٣٥٤/١.

١٢ـ عام الحزن

شهد العام العاشر من البعثة وفاة أبي طالب عم النبي ت، وكذا زوجه خديجة ل التي نزل قبرها رسول الله ﷺ ودفنها بموضع يسمى الحُجُون(١)(٢). ويبدو أن سبب وفاتهما كان جرّاء ما لقياه من آثار الجهد والجوع طيلة فترة المقاطعة.

أما عن وفاة أبي طالب فتشير بعض الروايات إلى أنه لما حضره الموت، جاءه رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا جهل بن هشام وعبد الله بن أمية بن المغيرة،فقال له: «يا عم قل لا إله إلا الله كلمة أشهد لك بها عند الله». فقال أبو جهل وعبد الله بن أمية: يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب ؟. فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه ويعودان بتلك المقالة حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم هو: على ملة عبد المطلب وأبى أن يقول لا إله إلا الله. فقال رسول الله ﷺ: «أما والله لأستغفرن لك ما لم أُنْه عنك»(٣).

فأنزل الله عز وجل : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾(٤). كما خاطب الله تعالى نبيه ﷺ في هذا الموقف بقوله: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾(٥)(٦).

وهنا يقتضي السياق تبيان قضية عقدية بدت بجلاء في الآية الأخيرة، حيث أقرت بمحبة الرسول ﷺ لعمه أبي طالب الذي مات، بل لم يرد فيها نهياً له أو عتاباً على هذه المحبة.ولا ريب في أن محبة النبي ﷺ لعمه هي من صنف المحبة الطبيعية الغريزية حيث كان الباعث عليها عامل القربى وحسن صحة أبو طالب للنبي ﷺ، وتعهده له منذ أن كان حدثاً في الثامنة من عمره.

---

(١) موضع في شمال مكة يعرف اليوم بريع الحجون، ويقع فيه جبل الحجون، وتسميه العامة بالحجول، وبه الثنية التي دخل منها الرسول إلى مكة يوم الفتح، ويقع في هذا الجبل أيضاً مقبرة أهل مكة بسفح جنوبه الغربي، وفيها مقبرة خديجة رضي الله عنها. البلادي: معالم مكة التاريخية والأثرية ص٧٩، ٨٠.

(٢) الحاكم: المستدرك (٤٨٣٧) ٢/٢٠٠، سكت عنه الحاكم والذهبي.

(٣) البخاري: الصحيح (١٢٩٤) ١/٤٥٧.

(٤)سورة التوبة: آية ١١٣.

(٥)سورة القصص: آية ٥٦.

(٦)البخاري: الصحيح (٣٦٧١) ٣/١٤٠٩، مسلم: الصحيح (١٤١) ١/٤٠.

ولا تعارض فيما سبق مع قوله تعالى ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾(١)، لأن مقصود عدم المودة الوارد في الآية متوجه لبُغض ما يعتقده غير المسلم من الكفر، وقتاله حين يُظهر العداء للإسلام ويشرع في حمل السلاح على أتباعه.وهذا دليل على نصفة الإسلام وعدله ورحمته.

كما يقتضي هذا السياق أن نتساءل.. ما الحكمة من أن يفقد الرسول ﷺ عمه في هذا الوقت العصيب والدعوة في مفترق طرق، وهو من «كان له عضداً وحرزاً في أمره، ومنعة وناصراً على قومه» حسب قول ابن إسحاق(٢) ؟.

إن الناظر المتأمل سيدرك أن الحكمة متعلقة هنا بجانب العقيدة، حيث بدا من سياق الأحداث أن أبا طالب هو من وفر للرسول ﷺ الحماية والمنعه، وكي لا يتسرب شبهة في نفوس الجماعة المؤمنة أو لدى كل من يطالع أحوال سيرته ﷺ، بأنه لولا أبو طالب لما تهيأ لهذه الدعوة أن تظهر وتنتشر، لذا شاءت إرادة الله أن تتوقف حماية أبو طالب النبي ﷺ في أخطر منعطف تمر به الدعوة في مكة، وعلى هذا لا يبقى للنفس المؤمنة إلا اليقين بأن لا ملجأ إلا إلى الله، لا إلى أسباب لا تملك من أمرها شيئاً إلا بإذنه ومشيئته(٣).

أما عن خديجة فلا توجد في المصادر تفاصيل وافية عن أمر وفاتها، ولكن ابن إسحاق يبدي تعليقاً رائعاً، يُفهم منه أن أمر وفاتها كان بمثابة مصيبة كبرى ونازلة عظمى ألمّت بالنبيﷺ، ولهذا قال:«فتتابعت على رسول الله ﷺ المصائب..وكانت له وزير صدق على الإسلام يشكوا إليها»(٤).

وهنا لابد من وقفة أمام هذه اللحظة الفارقة في حياة النبي ﷺ، فلا يستطيع أن ينكر كل ذي لب أو عاطفة، ما ألمَّ به ﷺ من هم شديد لفقده العم الذي طالما أحاطه بالحماية والمنعة، وما أحدق به من لوعة فراق الزوج التي مثلت له الصدر الحاني حين تضيق به السبل، والصديق الوفي حال الشدائد، والعقل الحكيم وقت النوازل، ولهذا حق للمؤرخين أن يَسِموا العام العاشر من البعثة ب «عام الحزن».

(١)سورة المجادلة: آية٢٢.
(٢)ابن هشام: السيرة ٤١٦/١.
(٣) البوطي: فقه السيرة ص١٠٦.
(٤) ابن هشام: السيرة ٤١٧/١.

١٣- رحلة الرسول ﷺ إلى الطائف

اشتد إيذاء قريش لرسول الله ﷺ بعد موت أبي طالب، يقول ابن إسحاق:«ونالت قريش من رسول الله من الأذى، ما لم تطمع به في حياة أبي طالب»(١)،حتى إن سفيهاً من سفهاء قريش اعترضه، فنثر على رأسه تراباً، فلما دخل رسول الله ﷺبيته والتراب على رأسه، قامت إليه إحدى بناته فجعلت تغسل عنه التراب وهي تبكي، ورسول الله ﷺ يقول لها:«لا تبكي يا بنية فإن الله مانع أباك»(٢).

هنا تبدأ مرحلة جديدة وفاصلة في مسيرة الدعوة، لأن فقدان النبي ﷺ للمنعة والحماية لوفاة أبي طالب، حثَّه على البحث عن عصبية قوية تجيره وتمكنه من تبليغ دعوته إلى الناس، ولكن واقع الحال في هذا التوقيت دفع به إلى أن يبحث عن تحقيق هذا المأرب خارج مكة(٣)، ولهذا تراءى للنبي ﷺ الخروج إلي الطائف في شوال سنة عشر(٤) عله «يلتمس النصرة من ثقيف والمنع من قومه، ورجاء أن يقبَلوا منه ما جاءهم به من الله ﷻ»(٥)، وكانت مدة إقامته بالطائف عشرة أيام.

وكان اختيار الرسول ﷺ للطائف لتكون مقصداً لهذه الرحلة، يعود إلى قربها من مكة التي تتفرد بخصيصة اجتماع وفود القبائل بها كل عام في موسم الحج، فضلاً عن أن الطائف امتلكت في ذاك الوقت مركزاً سيادياً وتجارياً مرموقاً في الحجاز، فهي تلي مكة من حيث الأهمية في هذا الجانب، نهيك عن أن الطائف كانت موطناً ومقاماً لأخواله من بني سعد، فقد قضي بينهم فترة مهمة من طفولته كان لها أثر كبير في إعداده وتكوينه

على أية حال خرج رسول الله ﷺ إلى الطائف مشياً على قدميه وهو محزون وبرفقته زيد بن حارثة ، وكان أول من قابلهم بها الثلاثة أبناء عمرو بن عمير بن عوف، وهم يومئذ من سادة ثقيف وأشرافهم، فدعاهم إلى الله وكلمهم بما جاءهم له من نصرته على الإسلام والقيام معه على من خالفه من قومه، فسخروا منه واستهزءوا به، حتى إن أحدهم قال له: أما وجد الله أحداً يرسله غيرك ؟ وقال آخر: والله لا أكلمك أبدا، لئن كنت رسولاً من الله كما تقول لأنت أعظم خطراً من أن أرد عليك الكلام ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي لي أن أكلمك. فقام رسول الله ﷺ من عندهم وقد يئس من خير ثقيف، وقد قال لهم: إذا فعلتم ما فعلتم فاكتموا عني.

---

(١) ابن هشام: السيرة ٤١٧/١.
(٢) ابن هشام: السيرة ٤١٧/١.
(٣)ياسر نور: العصبية القبليةص١٢.
(٤) ابن سعد: الطبقات ١٦٥/١.
(٥)ابن هشام: السيرة ٤٢٠/١.

ولكنهم لم يفعلوا حيث أغروا به سفاءهم وعبيدهم، فقعدوا له صفين على طريقه فلما مر رسول الله ﷺ بينهما جعل لا يرفع رجليه ولا يضعهما إلا رضخوهما(١) بالحجارة حتى أدموا قدميه(٢). وزاد سليمان التيمي« أنه ﷺ كان إذا أذلقته(٣) الحجارة وقع إلى الأرض، فيأخذون بعضديه فيقيمونه، فإذا مشى رجموه وهم يضحكون»(٤)، فخلص منهم ورجلاه تسيلان دماً(٥).

ثم عمد النبي ﷺ إلى ظل شجرة بجوار بستان عتبة وشيبة ابني ربيعة، وأخذ يناجي ربه قائلاً:« اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربي إلى من تكلني إلى بعيد يتجهمني(٦) ، أو إلى عدو ملكته أمري إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي، غير أن عافيتك هي أوسع لي أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، أن يحل علي غضبك أو أن ينزل بي سخطك، لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك»(٧) .

كان يوم الطائف عصيباً على النبي ﷺ، حتى كان أشد عليه من يوم أُحد(٨). أما عن حصاد الدعوة؛فلم يستجب لدعوة النبي ﷺ في الطائف غير الفتى النصراني (عداس)، حيث لما رأيا ابنا ربيعة عتبة وشيبة سوء ما لقي النبي ﷺ تحركت له رحمهما، فأرسلا إليه غلاماً لهما نصرانياً، يقال له (عداس)بطبق فيه قطف من عنب،فلما وضعه بين يدي رسول الله ﷺ قال ﷺ: «باسم الله»، ثم أكل، فنظر (عداس) في وجهه. ثم قال:« والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد. فقال له رسول الله ﷺ «ومن أهل أي البلاد أنت يا (عداس) وما دينك ؟» قال: نصراني، وأنا رجل من أهل (نينوى)(٩)؟. فقال رسول الله ﷺ: «من قرية الرجل الصالح يونس بن متى ؟». فقال له عداس: وما يدريك ما يونس بن متى ؟، فقال رسول الله ﷺ: «ذاك أخي كان نبياً وأنا نبيّ»، فأكب (عداس) على رسول ﷺ يقبل رأسه ويديه وقدميه »(١٠).

(١) الرضخ هو الدق والكسر. ابن الأثير: النهاية ٥٥٦/٢.
(٢) ابن سيد الناس: عيون الأثر ١٥٥/١، ١٥٦.
(٣) أذلقته: أتعبته وأجهدته. ابن الأثير: النهاية ٤١٥/٢ .
(٤) ابن سيد الناس: عيون الأثر ١٥٥/١، ١٥٦، السهيلي: الروض الأنف ٢٤/٤.
(٥) ابن سيد الناس: عيون الأثر ١٥٦/١، ابن سعد: الطبقات ٢١٢/١.
(٦)يتجهمني: أي يلقاني بالغلظة والوجه الكريه. ابن الأثير: النهاية ٨٥٤/١.
(٧) ابن هشام: السيرة ٤٢١/١.
(٨) البخاري: الصحيح (٣٠٥٩) ١١٨٠/٣، مسلم: الصحيح (٤٧٥٤) ١٨١/٥.
(٩)نينوى: إحدى مدن العراق المهمة، ذات شهرة تاريخية، وهي بلد نبي الله يونس بن متى، ونينوى اليوم أطلال وآثار على الضفة اليسرى لنهر دجلة مقابلة مدينة الموصل. البلادي: معجم المعالم الجغرافية ص٣٢٣.
(١٠) ابن هشام: السيرة ٤٢١/١. حديث صحيح الإسناد حيث صرح فيه ابن إسحاق بالسماع، لكنه مرسل من قبل محمد بن القرظي.

ويقول السهيلي(«أن عداساً حين سمعه يذكر ابن متى، قال: والله لقد خرجت منها – يعني نينوى– وما فيها عشرة يعرفون ما متى، فمن أين عرفت أنت متى؟، وأنت أميٌّ وفي أمة أميّة ؟ فقال رسول الله ﷺ: «وهو أخي إلى آخر القصة».

وثمة فائدة في هذا الحوار الفريد الثري في دلالته؛ حيث تجلت فيه فطنة الرسول ﷺ وحكمته في الدعوة إلى الله، إذ لم يجادل (عداساً) في عقيدته لاحتمال أن يتعصب لدينه، بل آثر ﷺ أن يحاوره في أدق مكنونات ثقافته الدينية التي لا يعرفها إلا الخاصة من علماء ملته.

ومن خلال أسلوب اتسم بالتدرج بدأ الرسول ﷺ حواره مع (عداس) بالتساؤل الآتي « من أهل أي البلاد أنت ؟ وما دينك ؟ »، فأخبره (عداس) أنه نصراني من بلدة نينوى. فقال له النبي ﷺ:« نينوى قرية الرجل الصلح يونس بن متى ؟».

بعد ذلك خرج الرسول ﷺ من الطائف وقد تملكه الهم والحزن، إلى أن وصل قرن الثعالب، فرفع رأسه فإذا بسحابة قد أظلته فيها جبريل، فناداه قائلاً:« إن الله عز وجل قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فناداه ملك الجبال وسلم عليه وقال له:«إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين (الجبلين) فقال النبيﷺ: «بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً »

ثم مرّ النبي ﷺعلى وادي نخلة فالتقى به نفر من الجن وهو قائم من جوف الليل يصلي، وكان عددهم ما دون العشرة، فاستمعوا له وهو يقرأ القرآن، فلما فرغ من صلاته ولوا إلى قومهم منذرين بعد أن آمنوا وأجابوا إلى ما سمعوا. فقص الله خبرهم عليه ﷺ، في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ . وقال تعالى: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ إلى آخر القصة من خبرهم في هذه السورة(١).

على الرغم من أن النبي ﷺ لم يحقق مبتغاه من رحلة الطائف، فلم يخرج خالي الوفاض من هذه الرحلة، حيث لم تخلو من مكاسب للدعوة، تمثلت في إسلام (عداس)، وكذا النفر من الجن حسبما تبين، ولاشك أن ذلك كان بمثابة دعم معنوي للنبي ﷺ، ليقوى على ما لقيه وما سيلقاه من شدائد وصعاب.

(١) ابن هشام: السيرة ٤٢٢/١، البخاري: الصحيح ١٢٠٠/٣.

١٤- النبي ﷺ يبحث عن مجير لدخول مكة

لم يعد أمام الرسول ﷺ إلا أن يعود إلى مكة، ولم يكن ذلك بالأمر الهين عليه ﷺ؛فقريش ستمعن في الاستهزاء به عندما تعلم بما جرى له في الطائف، بل ستتمادى في إيذائه خاصة بعد فقد عمه، وبالرغم من ذلك لم يتسرب اليأس إلى نفس النبي ﷺ، فكان موقناً أن اللَّه جاعل لما هو فيه فرجاً ومخرجاً، وأنه سيظهر دينه وينصر نبيه،ولكن كان عليه السعي والتماس الأسباب للخروج مما هو فيه.

ويبدو أن النبي ﷺكان يفكر ملياً في البحث عن سبيل لدخول مكة، لذا قال له زيد بن حارثة:« كيف تدخل عليهم وهم قد أخرجوك؟»(١)،ومن ثم رأى أن لا سبيل إلا بطلب الإجارةمن أحد سادتها على عادة العرب.

ولهذا لماوصل النبي ﷺ إلى حراء أرسل في طلب الإجارةمن الأخنس بن شريق وسهيل بن عمرو فلم يجيباه، فأرسل رجلاً من خزاعة إلى المطعم بن عدي فقبل إجارته، فدخل رسول اللَّه ﷺمكة فبات عنده تلك الليلة، فلما أصبح خرج المطعم بن عدي هو وبنوه وقد تلبسوا السلاح، وخرجوا حتى أتوا المسجد، ثم

بعث إلى رسول الله ﷺلأن يأتي ليطوف بالبيت، فدخل رسول الله ﷺ فطاف بالبيت وصلى عنده، فقام المطعم على راحلته فنادى: يا معشر قريش إني قد أجرت محمداً فلا يهجه أحد منكم(٢).

لم ينس النبي ﷺ للمطعم هذا الصنيع الجليل، ومن قبل موقفه في حادث المقاطعة، فظل يحمله له وفاء بعد وفاته على الرغم من موته مشركاً، بدليل قوله ﷺ بعد انتصار المسلمين على المشركين يوم بدر:« لو كان المطعم بن عدي حياً ثم كلمني في هؤلاء النتنى لتركتهم له»(٣).كما يحمل هذا الصنيع النبوي قيمة دينية حضارية تتمثل في إقامة العدل والشهادة بالحق للمخالف ديانة ومعتقداً، فلم يَحُل كفر المطعم بن العدي دون أن يقر بفضله، ويُظْهِر النبي ﷺ ما يشهد على جميل صنيعه(٤).

---

(١)ابن هشام: السيرة ٣٨٢/١، الصالحي: سبيل الهدى ٤٤١/٢ .
(٢) ابن هشام: السيرة ٣٨٢/١، ابن سعد: الطبقات ١٦٥/١، الصالحي: سبيل الهدى ٤٤١/٢ .

بِما تعملون ﴿٨﴾ سورة المائدة.

وقد فطن لذلك حسان بن ثابت فرثاه ونعاه بقوله:

أَيَا عَيْنُ فَابْكِي سَيِّدَ الْقَوْمِ وَاسْفَحِي ... بِدَمْعٍ وَإِنْ أَنْزَفْتِهِ فَاسْكُبِي الدَّمَا

وَبَكِّي عَظِيمَ الْمَشْعَرَيْنِ كِلَيْهِمَا ... عَلَى النَّاسِ مَعْرُوفًا لَهُ مَا تَكَلَّمَ

لَوْ كَانَ مَجْدٌ يُخْلِدُ الدَّهْرَ وَاحِدًا ... مِنْ النَّاسِ أَبْقَى مَجْدُهُ الْيَوْمَ مُطْعِمَا

أَجَرْتَ رَسُولَ اللَّهِ مِنْهُمْ فَأَصْبَحُوا ... عَبِيدَكَ مَا لَبَّى مُهِلٌّ وَأَحْرَمَا

فَلَوْ سُئِلَتْ عَنْهُ مَعَدٌّ بِأَسْرِهَا ... وَقَحْطَانُ أَوْ بَاقِي بَقِيَّةِ جُرْهُمَا

لَقَالُوا هُوَ الْمُوفِي بِخُفْرَةِ جَارِهِ ... ذِمَّتِهِ يَوْمًا إذَا مَا تَذَمَّمَا

فَمَا تَطْلُعُ الشَّمْسُ الْمُنِيرَةُ فَوْقَهُمْ ... عَلَى مِثْلِهِ فِيهِمْ أَعَزَّ وَأَعْظَمَا

وَآبَى إذَا يَأْبَى، وَأَلْيَنَ شِيمَةً ... وَأَنْوَمَ عَنْ جَارٍ إذَا اللَّيْلُ أَظْلَمَا(١)

---

(١) ابن هشام: السيرة ٣٨١/١ .

١٥ـرحلة الإسراء والمعراج

جاءت رحلة الإسراء والمعراج بعد هذه الأحداث الجسام، لكي يخفف الله تعالى بها هموم نبيه ﷺ وأحزانه، ويثبت بها فؤاده، وليبين له أنه تعالى سيعوضه بحفاوة أهل السماء والملأ الأعلى، فيريه من آياته، ومن قدرته، ومن أسراره في كونه، ما يمنحه الإيمان واليقين بأن الله عز وجل الذي أراه هذا كله قادر على نصرته، وأنه لن يتخلى عنه، ولكن الله تركه للأسباب ليجتهد فيها، حتى يكون ﷺ أسوة لأمته في عدم ترك الأسباب مع رفع أيديها إلى السماء.

وعلى الرغم من اختلاف المؤرخين في تحديد زمان هذه الرحلة، فتدل مجريات الأحداث أنها جرت بعد العام العاشر من البعثة، وتحديداً بعد رجوع النبي ﷺ من رحلة الطائف.

على أية حال بدأت هذه الرحلة بإسراء النبي ﷺ من المسجد الحرام إلى بيت المقدس، ثم عُرج به إلى السماوات العُلى، ثم عاد في نفس اليوم. وقد أشار القرآن إلى هذه الرحلة في سورتي: الإسراء والنجم. فقال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ (١). وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾

وثمة خلاف جرى بين العلماء في كيفية إسراء النبي ﷺ ومعراجه، والصحيح كما قال ابن حجر:« أن الإسراء والمعراج وقعا في ليلة واحدة في اليقظة بجسد النبي ﷺ وروحه بعد المبعث، والى هذا ذهب الجمهور من علماء المحدثين والفقهاء والمتكلمين وتواردت عليه ظواهر الأخبار الصحيحة ولا ينبغي العدول عن ذلك».

أما عن تفاصيل رحلة الإسراء فقد تناولتها العديد من الروايات، نذكر منها ما رواه أنس بن مالك ت أن رسول الله ﷺ قال:« أتيت بالبراق(وهو دابة أبيض طويل فوق الحمار ودون البغل، يضع حافره عند منتهى طرفه) قال: فركبته حتى أتيت بيت المقدس. قال: فربطته بالحلقة التي يربط به الأنبياء. قال: ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين، ثم خرجت. فجاءني جبريل عليه السلام بإناء من خمر وإناء من لبن. فاخترت اللبن. فقال جبريل ﷺ: اخترت الفطرة.

(١)سورة الإسراء: آية ١.

كما صح عن النبي ﷺ أنه صلّى بالأنبياء إماماً في بيت المقدس قبل عروجه إلى السماء(١).

ولعل من المعاني المهمة التي انطوت عليها رحلة الإسراء، أن في صلاة النبي ﷺ بالأنبياء إماماً، دليل على مدى الارتباط بين دعوتهم جميعاً، حيث جمعهم دين واحد هو الإسلام. كما يتجلى من ذلك معنى آخر وهو أفضليّته ﷺ عليهم لكونه صلى بهم إماماً. كما أن في رحلة الإسراء إعلان بأنه ﷺ وارث الأنبياء قبله، وأن منطقة بيت المقدس جزء لا يتجزأ من الرسالة الخاتمة(٢).

أما ما يتعلق بالمعراج فيقول النبي ﷺ:«.. ثم عرج بنا إلى السماء. فاستفتح جبريل فقيل: من أنت ؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك ؟ قال: محمد. قيل: وقد بعث إليه ؟ قال: قد بعث إليه. ففتح لنا. فإذا أنا بآدم. فرحب بي ودعا لي بخير. ثم عرج بنا إلى السماء الثانية. فاستفتح جبريل عليه السلام. فقيل: من أنت ؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك ؟ قال: محمد. قيل: وقد بعث إليه ؟ قال: قد بعث إليه ؟ ففتح لنا. فإذا أنا بابني الخالة عيسى ابن مريم ويحيى بن زكريا صلوات الله عليهما. فرحبا ودعوا لي بخير. ثم عرج بي إلى السماء الثالثة. فاستفتح جبريل. فقيل: من أنت. قال: جبريل. قيل: ومن معك ؟ قال: محمد ﷺ. قيل: وقد بعث إليه ؟ قال: قد بعث إليه. ففتح لنا. فإذا أنا بيوسف عليه السلام. إذا هو قد أعطي شطر الحسن. فرحب ودعا لي بخير. ثم عرج بنا إلى السماء الرابعة. فاستفتح جبريل عليه السلام. قيل: من هذا ؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك ؟ قال: محمد. قال: وقد بعث إليه ؟ قال: قد بعث إليه. ففتح لنا فإذا أنا بإدريس. فرحب ودعا لي بخير. قال الله عز وجل: ژ ڍ ڍ ڌ ژ (٣). ثم عرج بنا إلى السماء الخامسة. فاستفتح جبريل. قيل: من هذا ؟. قال: جبريل. قيل: ومن معك ؟ قال: محمد. قيل: وقد بعث إليه ؟. قال: وقد بعث إليه. ففتح لنا. فإذا أنا بهارون ﷺ. فرحب ودعا لي بخير. ثم عرج إلى السماء السادسة. فاستفتح جبريل عليه السلام. قيل: من هذا ؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك ؟ قال: محمد. قيل: وقد بعث إليه ؟ قال: قد بعث إليه. ففتح لنا فإذا أنا بموسى ﷺ. فرحب ودعا لي بخير. ثم عرج إلى السماء السابعة. فاستفتح جبريل. فقيل: من هذا ؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك ؟ قال: محمد. قيل: وقد بعث إليه ؟ قال: قد بعث إليه. ففتح لنا. فإذا أنا بإبراهيم ﷺ، مسنداً ظهره إلى البيت المعمور. وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه. ثم ذهب بي إلى السدرة المنتهى. وإن ورقها كآذان الفيلة. وإذا ثمرها كالقلال. قال، فلما غشيها من أمر الله ما غشي تغيرت.

---

(١) البيهقي: دلائل النبوة ٣٨٨/٢.
(٢)ينظر البوطي: فقه السيرة ص١١٣، الغزالي: فقه السيرة ص١٤١.
(٣)سورة مريم: آية ٥٧.

فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها. فأوحى الله إلي ما أوحى. ففرض علي خمسين صلاة في كل يوم وليلة. فنزلت إلى موسى ﷺ. فقال: ما فرض ربك على أمتك ؟ قلت خمسين صلاة. قال: ارجع إلى ربك. فاسأله التخفيف. فإن أمتك لا يطيقون ذلك. فإني قد بلوت بني إسرائيل وخبرتهم. قال: فرجعت إلى ربي فقلت: يا رب ! خفف على أمتي. فحط عني خمساً. فرجعت إلى موسى فقلت: حط عني خمساً. قال: إن أمتك لا يطيقون ذلك فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف. قال: فلم أزل أرجع بين ربي تبارك وتعالى وبين موسى عليه السلام حتى قال: يا محمد ! إنهن خمس صلوات كل يوم وليلة. لكل صلاة عشر. فذلك خمسون صلاة. ومن هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة. فإن عملها كتبت له عشراً ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب شيئاً. فإن عملها كتبت سيئة واحدة. قال: فنزلت حتى انتهيت إلى موسى ﷺ فأخبرته. فقال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف. فقال رسول الله ﷺ فقلت: قد رجعت إلى ربي حتى استحييت منه»(١).

بعد هذه الرحلة عاد النبي ﷺ إلى مكة، وأدرك أن ما شاهده من معجزات لن تتقبّله عقول أهل الكفر والعناد، فأصبح مهموماً حزيناً، فمر به أبو جهل وجلس إليه، فسأله كالمستهزئ عن سبب ما ألم به من الهم، فقص عليه ﷺ ما رآه ليلة أسرى به إلى بيت المقدس. فأشار عليه أبو جهل أن يدعو أهل مكة ليستمعوا منه ما قصه عليه مبتغياً بذلك تكذيب النبي ﷺ وتسفيهاً لما يقول، واجتمع الناس حوله، ثم دعاه أبو جهل ليحدثهم عن ذلك، فلما أخبرهم، كان حالهم بين مصفق ومن بين واضع يده على رأسه متعجباً. وطلبوا منه: أن صف لهم المسجد، وفي القوم من قد سافر إلى ذلك البلد ورأى المسجد. يقول رسول الله ﷺ:« فذهبت أنعت فما زلت أنعت حتى التبس علىّ بعض النعت. قال: فجيء بالمسجد وأنا أنظر حتى وضع دون دار عقال أو عقيل فنعته وأنا أنظر إليه... فقال القوم: أما النعت فو الله لقد أصاب»(٢).

ثم انطلق نفرٌ من قريش إلى أبي بكرت يسألونه عن موقفه من الخبر الذي حدثهم به النبي ﷺ، فقال لهمت:«..نعم إني لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك، أصدقه بخبر السماء في غدوة أو روحة»،فسمي لذلك «الصديق»(٣).

---

(١) مسلم: الصحيح (٤٢٩) ٩٩/١.
(٢)أحمد بن حنبل: المسند (٢٨٢٠) ٣٠٩/١.تعليق شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.
(٣) الحاكم: المستدرك (٤٤٠٧) ٦٥/٣.قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وصححه الذهبي.

١٦-الرسول ﷺ يواصل البحث عن عصبية لحماية الدعوة خارج مكة

بعد أن عاد النبي ﷺ إلى مكة في جوار المطعم بن عدي، أخذ يجد في السعى ليحقق هدفه الذي لم ينجزه في الطائف، فلم يكن يعلم بوصول قبيلة من قبائل العرب إلى مكة في موسم الحج إلا ذهب إليهم يدعوهم إلى الله، ويحثهم أن يمنعوه حتى يبلغ دعوة الإسلام، فكان «يعرض نفسه في المواسم على القبائل ويدعوهم إلى الله، ويخبرهم أنه نبي مرسل، ويسألهم أن يصدقوه ويمنعوه حتى يبين لهم الله ما بعثه به»(١).

استعان الرسول ﷺبأبي بكروعلي بن أبي طالب ب في دعوة القبائل والتعرف عليهم(٢)، وربما كانت هذه الرفقة لأجل ألا يظن المدعوون أنه وحيد لا أعوان له من أشراف قومه وأقاربه، هذا إلى جانب معرفة أبي بكر ت بأنساب العرب(٣)، الأمر الذي يدعم الرسول ﷺ في التعرف على منازل القبائل، فيقع الاختيار على أفضلها لتحمل تبعات الدعوة(٤).

تظهر الروايات أن كثيراً من القبائل واجهت دعوة الرسول ﷺ بالرفض الشديد في هذه المرحلة، وهذا ما عرّضه ﷺ للأذى من قِبَل بعضها، حيث تناولوه بالسب والتهديد والإهانة،فيذكر ابن شهاب الزهري أن رسول الله ﷺفي تلك السنين كان يعرض نفسه على قبائل العرب في كل موسم، ويكلم كل شريف قوم، يسألهم أن يؤوه ويمنعوه حتى يبلغ دعوته إلى الناس فلم يقبله أحد منهم، و«ما يأت أحدا من تلك القبائل إلا قال قوم الرجل أعلم به أترون أن رجلاً يصلحنا وقد أفسد قومه ولفظوه..»(٥).

ويحكي منيب الأزدي ت(٦) أنه رأى رسول الله ﷺ وهو يقول: « يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا». فمنهم من تفل في وجهه، ومنهم من حثا عليه التراب، ومنهم من سبه، حتى انتصف النهار»، فأقبلت عليه ابنته زينب ل بِعُسٍّ(٧) من ماء فغسل وجهه ويديه، وقال: «يا بنية لا تخشي على أبيك غلبَة ولا ذلة»

(١) سيرة ابن هشام ٤٢٣/١ .
(٢) الصالحي: سبيل الهدى ٤٥٣/٢.
(٣) إبراهيم علي محمد: السيرة النبوية قراءة لجوانب الحذر والحماية ص١١٦.
(٤) الصلابي: السيرة ٢٧٦/١، ٢٧٧.
(٥) ابن كثير: البداية والنهاية ١٧١/٣.
(٦) أبو أيوب منيب الأزديّ الغامديّ.قال البخاريّ، وأبو حاتم: له صحبة. وقال أبو عمر: عداده في أهل الشام. ابن حجر: الإصابة (٨٢٦٨) ١٧٩/٦.
(٧) العس: القدح الكبير. ابن الأثير: النهاية ٤٦٦/٣.

كما يروي عامر بن سلمة الحنفي(١)ت أنه رأى رسول الله ﷺ يأتي قومه بعكاظ ومجنّة وبذي المجاز، يدعوهم إلى الله ﷻ، وأن يمنعوه حتى يبلّغ رسالة ربه إلى الناس، ويشرط لهم الجنّة، يقول عامر ت:«فما استجبنا له، ولا رددنا عليه رداً جميلاً، فخشّنّا عليه وحلم عنا»(٢).

وكان ممن عرض عليهم نفسه من القبائل: بنو عامر بن صعصعة، ومحارب ابن حفصة، وفزارة، وغسان، ومرة، وحنيفة، وسليم، وعبس، وبنو نضر، وبنو النكا، وكندة، وكلب، والحارث بن كعب، وعزرة، والحضارمة، ولكن لم يستجب منهم أحد(٣).

وروى ربيعة بن عباد(٤)، أنه رأى رسول الله ﷺ يقف على منازل القبائل من العرب، وهو يقول: يا بني فلان، إني رسول الله إليكم، يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد، وأن تؤمنوا بي، وتصدقوا بي وتمنعوني، حتى أبين عن الله ما بعثني به. قال: ومن خلفه عمه أبي لهب يقول: يا بني فلان، إن هذا إنما يدعوكم أن تسلخوا اللات والعزى من أعناقكم..فلا تطيعوه ولا تسمعوا منه(٥) .

ولا شك أن صنيع أبي لهب كان له أثر كبير في إعراض عدد من القبائل عن الإسلام، وذلك لقرابته النبي ﷺ، فكانوا يردون عليه أقبح الرد ويقولون له: «أسرتك وعشيرتك أعلم بك حيث لم يتبعوك، وهو يدعوهم إلى الله، ويقول: اللهم لو شئت لم يكونوا هكذا»(٦).

لم يكن أبو لهب وحده من قام بهذا الصنيع، فأبي جهل فعل ذلك وأشد، فكان يحثي على رسول الله ﷺ التراب عندما يذهب لدعوة الناس بذي المجاز، ويقول: « يا أيها الناس لا يغرنكم هذا عن دينكم، فإنما يريد لتتركوا آلهتكم وتتركوا اللات والعزى..»(٧).

---

(١) عامر بن سلمة بن عبيد بن ثعلبة الحنفيّ، أسلم سنة تسع على يد العلاء بن الحضرميّ رضي الله عنه لما أرسله النبي ﷺ إلى المنذر بن ساوى. ابن حجر: الإصابة (٤٤٠٨) ٤٧١/٣.
(٢) الصالحي: سبيل الهدى ٢/ ٤٥٣.
(٣) ابن قيم: زاد المعاد ٤٣/٣، الصالحي: سبيل الهدى ٢/ ٤٥٣.
(٤) هو الصحابي ربيعة بن عباد الدؤلي، شاهد النبي ﷺ بسوق عكاظ وذي المجاز وهو يدعو القبائل للإسلام، توفي في خلافة الوليد. ابن حجر: الإصابة (٢٦١٦) ٢/ ٣٩٠.
(٥)ابن هشام:السيرة ٤٢٣/١، أحمد: المسند (١٦٠٦٦) ٤٩٢/٣،تعليق شعيب الأرنؤوط: صحيح لغيره وهذا إسناد حسن عبد الرحمن بن أبي الزناد ينزل عن رتبة الصحيح وباقي رجاله ثقات رجال الصحيح.
(٦) ابن قيم: زاد المعاد ٤٢٤/١.
(٧) أحمد: المسند (١٦٦٥٤)٦٣/٤، يقول ابن كثير:« ..في هذا السياق أبو جهل، وقد يكون أبو جهل وهما، ويحتمل أن يكون ذا تارة وذا تارة، وأنهما يتناوبان على أذيّة رسول الله ﷺ، واختار الصالحي الرأي الأخير. البداية والنهاية١٧٠/٣.

وفي هذا السياق يذكر جابر بن عبد الله ت أنه عندما يأتي الرجل إلى مكة في موسم الحج، كان يتلقاه أهل مكة ويقولون له:« احذر غلام قريش لا يفتنك ويمشي بين رحالهم يدعوهم إلى الله عز و جل يشيرون إليه بالأصابع»(١).

لعل هذه النماذج تظهر مدى الشدة والعناء والعنت الذي لاقاه رسول الله ﷺ وهو يدعو إلى الله، كما تدل على عظم الألم النفسي الذي أحاط به، كل هذا ولم يتمكن اليأس من نفسه، بل كان ديدنه الثبات والصبر واليقين في تأييد الله تعالى وعونه له، مع الحرص على بذل الجهد واستفراغ الوسع في تبليغ كلمة الله إلى الناس.

كان من الذين دعاهم الرسول ﷺ إلى الإسلام بني عامر بن صعصعة،حيث وجدوا أن استجابتهم للدعوة ستحقق لهم كسباً سياسياً كبيراً يسودون به على العرب إن تولوا أمر المسلمين بعد الرسول ﷺ، ولهذا قال له أحد سادات بني عامر:« أرأيت إن نحن بيعناك على أمرك، ثم أظهره الله على من خالفك، أيكون لنا الأمر من بعدك ؟. قال ﷺ: الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء، فقال له: أفتهدف نحورنا للعرب دونك، فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا ! لا حاجة لنا بأمرك..»(٢).

يظهر من هذا الموقف النبوي بجلاء قيمة الثبات على المبدأ، حيث كان النبي ﷺ في مسيس الحاجة إلى من يأويه ويحمي دعوته، وكان بإمكانه قبول هذا العرض مرحلياً إلى أن تنهض الدعوة ويظهر الإسلام، لكن قوة العقيدة واليقين في أن نصر الله آت لا محالة، دفعاه لأن يعلن رفضه لهذه المساومة، قاصداً بذلك ألا تُستغل الدعوة سياسياً من قبل بني عامر، فيستأثروا بالحكم دون غيرهم، فيودي الأمر بالمسلمين إلى الفتنة والشقاق والفرقة.

استثمر النبي ﷺ دراية أبو بكر ت بأنساب العرب، في الاتصال ببني شيبان، حيث ظهر من حديثه معهم أنهم من وجهاء العرب وأشدهم على القتال وأصبرهم عليه، ثم مهد الأمر للنبي ﷺ للحديث إليهم والتفاوض معهم، فقال لهم ﷺ: «أدعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا اللَّه وحده لا شريك له، وأني عبد اللَّه ورسوله، وإلى أن تأووني وتنصروني فإن قريشاً قد تظاهرت على الله وكذّبت رسوله واستغنت بالباطل عن الحق وَاللَّه هو الغني الحميد».

---

(١) أحمد بن حنبل: المسند (١٤٦٩٤) ٣٣٩/٣، تعليق شعيب الأرنؤوط: حديث صحيح وإسناده حسن.
(٢) ابن هشام: السيرة ٤٢٥/١.

فاستحسنوا حديث رسول الله ﷺ وأثنوا على كلامه، ولكنهم آثروا التمهل في قبول ما دعاهم إليه النبي ﷺ، حيث بينوا له أن يقيميون بين كسرى وبين ما جوارهم من قبائل العرب، ثم أبانوا ما في استطاعتهم أن ينفذوه من عهد مع رسول الله ﷺ، حيث قال له شيخهم المثنى بن حارثة:« وإنا إنما نزلنا على عهد أخذه علينا كسرى أن لا نحدث حدثاً ولا نؤوي محدثاً، وإني أرى هذا الأمر الذي تدعونا إليه يا أخا قريش مما تكرهه الملوك، فإن أحببت أن نؤويك وننصرك مما يلي مياه العرب فعلنا..».

استحسن رسول الله ﷺ صدقهم في بيان ما يملكون من استطاعة في نصرة هذا الدين «ما أسأتم في الرد إذ أفصحتم بالصدق». ثم أوضح لهم رفضه لهذا العرض؛ لأن من قبل نصره هذا الدين ينصره من جميع جوانبه، لا أن ينتقي منه شيئاً ويترك أشياء.

ثم استوثق منهم الرسول ﷺ إن مكنهم الله من الفرس ونصرهم عليهم، فهل سيعتنقون هذا الدين ؟. فأجابوه: اللهم فلك ذاك. فتلا عليهم رسول الله ﷺ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴾(١)، ثم نهض رسول الله ﷺ(٢).

وأورد الطبراني(٣) أن أبا بكرت هو من قال لهم:« أرأيت إن غلبتموهم أتتبعنا على أمرنا ؟ قال: لا نشترط لك هذا علينا، ولكن إذا فرغنا فيما بيننا وبينهم عدنا فنظرنا فيما تقول فلما التقوا يوم ذي قار هم والفرس قال شيخهم: ما اسم الرجل الذي دعاكم إلى الله ؟ قالوا: محمد قالوا: هو شعاركم فنصروا على القوم فقال رسول الله ﷺ: «بي نصروا ».

(١) سورة الأحزاب: آية ٤٥ :٤٦.
(٢)البيهقي: دلائل النبوة ٤٢٦/٢، ٤٢٧، ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق ٢٩٦/١٧، الصالحي: سبيل الهدى ٤٥٣/٢، ٤٥٤.
(٣) الطبراني: المعجم الكبير (٥٥٢٩) ٦٢/٦.يقول الهيثمي: ورجاله ثقات رجال الصحيح غير خلاد ابن عيسى وهو ثقة.مجمع الزوائد (١٠٣٦١) ٣١١/٦.

١٧-اتصال النبيﷺ ببعض أهل يثرب قبل بيعتا العقبة

تظهر النصوص أن اتصال النبي ﷺ بأهل يثرب بدأ قبل بيعتا العقبة الأولى والثانية، فقد سبقهما لقاءات يعود بعضها إلى بدايات الدعوة بمكة وليس بآخرها كما قد يُظن. من أبرزها لقاءه ﷺ بسويد بن الصامت(١) وحواره معه بسوق المجاز في أول مبعثه ﷺ. يقول ابن عبد البر(٢):« لقي النبي ﷺ بسوق المجاز من مكة في حجة حجها سويد على ما كان يحجون عليه في الجاهلية، وذلك في أول مبعث النبي ﷺ ودعائه إلى الله..».

وعندما علم النبي ﷺ بوجود سويد بن الصامت في الموسم، التقاه ودعاه إلى الإسلام، فقال له سويد: فلعل الذي معك مثل الذي معي؛ فقال له رسول الله ﷺ: وما الذي معك ؟، قال: مجلة لقمان –يعني حكمة لقمان– فقال له رسول الله ﷺ: اعرضها عليَّ، فعرضها عليه؛ فقال له: إن هذا كلام حسن، والذي معي أفضل من هذا، قرآن أنزله الله عليّ، هو هدى ونور. فتلا عليه رسول الله ﷺ القرآن، ودعاه إلى الإسلام، فلم يبعد منه، فقال سويد: إن هذا

لقول حسن. ثم انصرف فقدم المدينة على قومه، فلم يلبث أن قتله الخزرج، فإن كان رجال من قومه يقولون: إنا لنراه قد قتل وهو مسلم، وكان قتله قبل يوم بعاث

تظهر الرواية براعة النبي ﷺ في دعوة سويد إلى الإسلام، حيث عمد إلى أسلوب أدب الاستماع ولطف الحديث، لتهيئة سويداً لأن يستمع إلى ما يدعوه إليه، حتى أدرك بملكته الشعرية صدق ما نزل عليه ﷺ، وانتهى الأمر بإسلامه.

وممن التقى بهم النبي ﷺ قبل بيعتا العقبة، جماعة من الأوس قدموا مكة على رأسهم أبو الحيسر أنس بن رافع، يلتمسون الحلف من قريش على قومهم من الخزرج، فدعاهم إلى الإسلام، وتلا عليهم القرآن..فقال إياس بن معاذ، وكان غلاماً حدثاً: أي قوم هذا والله خير مما جئتم له، فأخذ أبو الحيسر، حفنة من تراب البطحاء، فضرب بها وجه إياس بن معاذ، وقال: دعنا منك، فلعمري لقد جئنا لغير هذا. فلما انصرفوا إلى المدينة لم يلبث أن توفي إياس بن معاذ، وأخبر من حضر من قومه عند موته،« أنهم لم يزالوا يسمعونه يهلل الله تعالى ويكبره ويحمده ويسبحه حتى مات، فما كانوا يشكون أن قد مات مسلماً..».

---

(١)هو سويد بن الصامت الأوسي، الشاعر الشهير، كان قومه يدعونه الكامل لحكمة شعره وشرفه فيهم. ابن عبد البر: الاستيعاب ٦٧٧/٢.

(٢) ابن عبد البر: الاستيعاب ٦٧٧/٢.

على الرغم مما بدا للنبي ﷺ أن حال القوم ينبئ عن صدود من دعوته وإعراض عنها، فإن حال إياس بن معاذ لم يكن كحال جموع قومه،حيث أدرك في مقالة النبي ﷺ ضالته المنشودة ووجد في الإسلام طوق نجاته من الشرك وعبادة الأوثان. وتأمل حقيقة هذا المعنى في توصيف محمود بن لبيد لحال إياس، فيقول:«لقد كان استشعر الإسلام في ذلك المجلس حين سمع من رسول الله ﷺ ما سمع»(١).

وهنا على أصحاب الرسالات ومن يعنوا بالدعوة إلى الله ألا يحبطهم ردود أفعال المتلقين حال نقل الرسالة إليهم، فرب واحد منهم تتنازعه الحيرة والشك في معتقده أو حيال واقع مجتمعه، فتتوق نفسه إلى منقذ من الضلال أو هادياً يأخذ بيده إلى سبيل الرشاد، حينئذ ستجده يتجه بكامل كيانه ووجدانه إلى تلمس طريق الإيمان.

(١) ابن هشام: السيرة ٤٢٨/١.

١٨-جريان سنة التغيير للتمكين لدعوة الإسلام:

نناقش في هذا الموضع قضية مهمة، تستحث العقل لفقه حركة السيرة ومقاصدها في عهدها المكي؛ فسبق البيان أن النبي ﷺ لم يألو جهداً في بناء الجماعة المؤمنة على أساس العقيدة الصحيحة والتوحيد الخالص، واستفرغ الوسع في ممارسة شتى صور الدعوة حيال المشركين سواء داخل مكة أو خارجها، على ما لحقه في سبيل ذلك من أذى وتعذيب واضطهاد، وعلى الرغم من تضييق الخناق عليه، لم يتمكن اليأس من عزمه،فكان شديد الحرص على تتبع القبائل في منازلهم،طلباً أن يحيطوه بالمنعة والحماية كي يبلغ كلمة الله الناس.

هنا كان لابد أن تسري سُنّة التغيير الإلهي، من أجل أن يُبدل هذا الواقع المرير المليء بالإخفاقات، لتظهر الدعوة وتبدأ مرحلة التمكين لهذا الدين، وهذا ما تقرر في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ ﴾(١)، وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾(٢).

والتساؤل هنا.. كيف تدخلت العناية الإلهية لتغيير الواقع من حوله ﷺ؟.

يقول ابن إسحاق:« فلما أراد الله عز وجل إظهار دينه، وإعزاز نبيه ﷺ وإنجاز موعده له، خرج رسول الله ﷺ في الموسم الذي لقيه فيه النفر من الأنصار.. فبينما هو عند العقبة لقي رهطاً من الخزرج أراد الله بهم خيراً »(٣).

إذن فلقاء النبي ﷺ بالأوس والخزرج، وهو اللقاء الذي وقف بالدعوة الإسلامية على أعتاب التحول الأعظم من النصرة والتمكين. وبعد استقراء دقيق لأحوال المدينة (يثرب) في تلك الفترة، تبين أن ثمة عاملين أراد الله بهما تهيئة المدينة لاستقبال النبي ﷺودعوته هما:

أولاً: حرب «بُعاث» آخر الحروب بين الأوس والخزرج، كان لها أثرها البالغ في إنهاك قوى الجانبين، والإتيان عليهما بالضعف والفرقة، وتأمل ذلك في وصف عائشة ل لحالهم بعد انتهاء هذه الحرب، فتقول:« افترق ملأهم وقتلت سرواتهم(٤) وجرحوا »(٥).

---

(١)سورة الرعد: آية ١١.
(٢)سورة الأنفال: آية ٥٣ .
(٣) ابن هشام: السيرة ٤٢٨/١.
(٤) سرواتهم: أي خيارهم وأشرافهم. ابن الأثير: النهاية ٩١٩/٢.
(٥) البخاري: الصحيح (٣٥٦٦) ١٣٧٧/٣ .

وعلى الرغم مما خلّفته هذه الحرب من دمار وخراب على الفريقين، فلم تخل من فائدة عظمى؛ لكونها مهدت نفوس القوم إلى التصالح ونبذ الفرقة، وقد شاءت إرادة الله أن يتزامن هذا التوجه مع دعوة النبي ﷺ لهم عند العقبة، فوجدوا ضالتهم في الإسلام ووجد النبي ﷺ فيهم النصير الذي يأويه والمجير الذي يحمي دعوته، وهذا هو المقصود من قول عائشة ل:«كان يوم بعاث يوما قدمه الله لرسوله.. في دخولهم في الإسلام»(١). ولهذا لما اجتمع النبي ﷺ بالأنصار عند العقبة قالوا له:« إنا قد تركنا قومنا بينهم من العداوة والشر ما بينهم، فعسي أن يجمعهم الله بك..»(٢).

ثانياً: تبشير يهود المدينة بحلول زمان النبي ﷺ، الأمر الذي وطَّأ نفوس الأوس والخزرج للإيمان بدعوته والاستجابة لحواره، فحين ينشب نزاع بين اليهود وبين الأوس والخزرج، كان اليهود يقولون لهم:« إن نبياً مبعوث الآن، قد أظل زمانه، نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم»، فلما كلم رسول الله ﷺ أولئك النفر، ودعاهم إلى الله، قال بعضهم لبعض: يا قوم:« تعلموا والله إنه للنبي الذي توعدكم به يهود، فلا تسبقنكم إليه، فأجابوهم فيما دعاهم إليه..»(٣)، وقد أشار القرآن إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾(٤).

وقد بدأ التحول الكبير للأوس والخزرج نحو الإسلام في السنة الحادية عشرة، لتتحقق إرهاصات سُنّة التغيير من أجل أن يُمكّن لهذا الدين، حيث عرض النبي ﷺ نفسه على نفر من الخزرج عند العقبة في الموسم، فجلس إليهم:«فدعاهم إلى الله عز وجل، وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن..فأجابوه فيما دعاهم إليه بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام».

ثم ظهر في حديثهم ما أحدثته فيهم حرب بعاث من القطيعة والشر، آملين أن يكون الرسول ﷺ هو الشخص الذي يجمعهم على كلمة سواء، ولهذا قالوا:« إنا قد تركنا قومنا، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك، وتعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين فإن يجمعهم الله عليه فلا رجل أعز منك». ثم انصرفوا عن رسول الله ﷺراجعين إلى المدينة بعد أن آمنوا به وصدقوه(٥).

---

(١) البخاري: الصحيح (٣٥٦٦) ١٣٧٧/٣.
(٢) ابن هشام: السيرة ٤٢٩/١.
(٣) ابن هشام: السيرة ٤٢٩/١.
(٤)سورة البقرة: آية ٨٩ .
(٥) ابن هشام: السيرة ٤٢٨/١، ٤٢٩.

أما عن أسماء هؤلاء النفر من الأنصار فهم :

- أسعد بن زرارة.
- عوف بن الحارث بن عفراء.
- رافع بن مالك.
- قطبة بن عامر بن حديدة.
- عقبة بن عامر بن نابيء.
- جابر بن عبد الله بن رئاب(١).

فلما قدموا المدينة إلى قومهم ذكروا لهم رسول الله ﷺ، ودعوهم إلى الإسلام حتى فشا فيهم،ولم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذِكْر من رسول الله ﷺ (٢)، أو حسب قول جابر بن عبد الله ت.«حتى لا يبقى دار من دور يثرب إلا فيها رهط من المسلمين يظهرون الإسلام»(٣).

بيعة العقبة الأولى:

وفي موسم الحج من العام التالي، أي في العام الثاني عشر من البعثة، التقى النبي ﷺ عند العقبة وجمْع من الخزرج وهم:

- أسعد بن زرارة
- عوف ومعاذ ابنا الحارث بن رفاعة وهما ابنا عفراء.
- رافع بن مالك بن العجلان.
- ذكوان بن عبد قيس.
- عبادة بن الصامت.
- يزيد بن ثعلبة.
- عقبة بن عامر.
- قطبة بن عامر.
- أبو الهيثم مالك بن التيهان.
- عويم بن ساعدة.

(١) يقول عنهم الواقدي:«هذا عندنا أثبت ما سمعنا فيهم وهو المجتمع عليه» ابن سعد: الطبقات ١٧٠/١.

(٢) ابن هشام: السيرة ٤٢٩/١.

(٣) أحمد بن حنبل: المسند (١٤٦٩٤) ٣٣٩/٣، تعليق شعيب الأرنؤوط: حديث صحيح وإسناده حسن.

وقد دعاهم النبي ﷺإلى الإسلام فشرح الله صدورهم له، وبايعوا بيعة العقبة الأولى التي عرفت بـ«بيعة النساء»(١)،ويروي عبادة بن الصامت ت شروطها فيقول:«بايعنا رسول اللهﷺ ليلة العقبة الأولى على أن ألا نشرك بالله شيئاً، ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفترينه من بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف، فإن وفيتم فلكم الجنة، وإن غشيتم من ذلك شيئاً فأخذتم بحده في الدنيا، فهو كفارة له، وإن سترتم عليه إلى يوم القيامة فأمركم إلى الله عز وجل، إن شاء عذب وإن شاء غفر»(٢).

والناظر في بنود هذه البيعة سيلحظ أنها لم تقتصر على دعوتهم فقط إلى صحيح الدين والعقيدة، حيث تطرقت باقي بنودها إلى الحض على نبذ الفواحش كالسرقة والزنا وغيرها، وكأن النبي ﷺ يريد بذلك أن يستنفر همم القوم ليصدهم عن هذه الآثام والفواحش دون أن يقرر لها عقوبات أو يقنن لها حدوداً، كي يمهد نفوسهم لتقبل تشريعات الحدود والجنايات التي ستتنزل آياتها بالمدينة فيما بعد. ومن ناحية أخرى ابتغى النبي ﷺ بذلك تهيئة بيئة المجتمع المدني لتصبح داراً صالحة للهجرة وموطناً آمناً للإسلام.

كما يُلحظ أن الرسول ﷺ لم يشترط على أهل هذه البيعة أن يجيروه ويمنعوه، أو يتعاهد معهم على الهجرة إلى يثرب؛ وفلابد وأنه ﷺ أدرك أن الحال بيثرب في هذه المرحلة لم يكن يسمح بذلك على الرغم من إسلام كثير من أهلها، ولهذا أراد ﷺمن وراء هذه البيعة أن يحدث تغييراً جذرياً،يفضي لأن تكون يثرب مؤهلة بحفل استقباله هو وأصحابه، ولهذا أرسل مصعب بن عمير ت لنشر الإسلام بين أهلها(٣).

أخذ هؤلاء الرهط من الخزرج على عاتقهم نشر الدعوة في بلادهم، وأرسل معهم رسول الله ﷺ كما أشرنا مصعب بن عمير ت ليقرئهم القرآن، ويفقههم في الدين، ولهذا لقب في المدينة بـ«المقرئ»(٤).

نزل مصعب ت بالمدينة على أسعد بن زرارة ﷺ، وكان يؤم الأوس والخزرج في الصلاة، ونجح في أن يدخل الإسلام على يديه سعد بن معاذ وأسيد ابن حضير سيدي،على أثرهما أسلم جميع بني عبد الأشهل من الأوس((٥).

---

(١)سميت بذلك لأن بنودها كانت نفس بنود بيعة النبي لنساء أهل مكة في اليوم الثاني من فتحها عام ثمان من الهجرة.
(٢)ابن هشام: السيرة ٤٣٣/١.
(٣) الصلابي: السيرة ٣٠١/١، ياسر نور: العصبية القبلية ص ٣٢١.
(٤) ابن هشام: السيرة ٤٣٤/١.
(٥) ابن هشام: السيرة ٤٣٥/١- ٤٣٨.

ظل مصعب بن عمير ت يبذل كل الوسع في نشر الإسلام بالمدينة حتى لم تبْقَ دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال مسلمون ونساء مسلمات(١). بناء على هذا النجاح الكبير الذي حققه مصعب ومن سانده من الأنصار في دعوة الأوس والخزرج إلى الإسلام بالمدينة، عقد معهم النبي ﷺفي العام التالي بيعة العقبة الثانية.

بيعة العقبة الثانية :

عاد الأوس والخزرج إلى مكة في موسم الحج عام ١٣ من البعثة، وكان حرصهم قد اشتد هذه المرة على ألا يتركوا رسول اللهﷺ مطارداً محاصراً في مكة. فالتقوا به عند العقبة بعد فراغهم من الحج، وهم يكتمون أمرهم عمن صحبهم ممن كان على الشرك من أهل المدينة، وكان عددهم ٧٣ رجلاً (٦٢ من الخزرج / و١١ من الأوس) من بينهم امرأتان هما: أم عمارةتنسيبة بنت كعب، وأم منيع أسماء بنت عمرو.

قدم رسول الله ﷺ ومعه عمه العباس بن عبد المطلب، وهو يومئذ على دين قومه إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويستوثق له. فلما جلس كان أول متكلم العباس بن عبد المطلب، فقال يا معشر الخزرج - كانت العرب إنما يسمون هذا الحي من الأنصار: الخزرج، خزرجها وأوسها -:« إن محمداً منا حيث قد علمتم وقد منعناه من قومنا، ممن هو على مثل رأينا فيه فهو في عز من قومه ومنعة في بلده، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ومانعوه ممن خالفه فأنتم وما تحملتم من ذلك.

ثم طلب الأنصار من الرسول ﷺ أن يتكلم، وأن يأخذ لنفسه ولربه من المواثيق ما يحب. فتكلم رسول الله ﷺ، فتلا القرآن، ودعا إلى الله، ورغب في الإسلام، ثم قال:«أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأولادكم. قال: فأخذ البراء بن معرور بيده، ثم قال: نعم، والذي بعثك بالحق نبياً، لنمنعنك ما نمنع منه أزرنا، فبايعنا يا رسول الله ﷺ، فنحن والله أبناء الحروب وأهل الحلقة، ورثناها كابراً عن كابر. قال: فاعترض القول والبراء يكلم رسول الله ﷺ أبو الهيثم بن التيهان، فقال: يا رسول الله إن بيننا وبين الرجال حبالاً وإنا لقاطعوها – يعني اليهود – فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟ قال: فتبسم رسول الله ﷺ، ثم قال: «بل الدم الدم والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم»

---

(١)لم يعرض عنه سوى بعض بطون الأوس، وذلك بأثر من أبي قيس بن الأسلت الذيكان شاعراً لهم= =وقائداً يسمعون منه ويطيعونه فوقف بهم عن الإسلام، فلم يزل على ذلك حتى أسلم بعد الخندق. ومنهم: الأصيرم، وهو عمرو بن ثابت بن وقش، والذي تأخر إسلامه إلى يوم أُحد فأسلم واستشهد فهذا اليوم ولم يصلِّ لله بسجدة قط، وأخبر رسول الله ﷺ أنه من أهل الجنة.ابن هشام: السيرة ٤٣٧/١، ٤٣٨، الصالحي: سبيل الهدى ١٩٩/٣.

وقد وردت كافة بنود البيعة بتفصيل أكثر في رواية جابر بن عبد الله ت، ويمكن إجمالها في الآتي:

- مبايعته على السمع والطاعة في النشاط والكسل.
- النفقة في العسر واليسر.
- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
- أن تقولوا في الله لا تأخذكم فيه لومه لائم.
- أن ينصروا رسول الله ﷺ إذا قدم يثرب، فيتمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم وأزواجهم وأبناءهم(١).

والناظر في هذه البنود سيلحظ أن أهمها وأخطرها، ما أراده النبي ﷺ من الأوس والخزرج أن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم، ولهذا سميت بـ«بيعة الحرب». فكان ذلك توطئة وتمهيداً لتشريع الجهاد،والذي تقرر بعد نزول قول الله عز وجل : ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ﴾

يقول ابن عباس ت:«..فلما استقروا بالمدينة وافاهم رسول الله ﷺ واجتمعوا عليه وقاموا بنصره ..شرع جهاد الأعداء فكانت هذه الآية أول ما نزل في ذلك..»

إذن فقد أراد النبي ﷺ بهذه البيعة تهيئة القوم لهذا الأمر الجلل، وليدرك الأنصار أنهم على أعتاب مرحلة فاصلة من حياتهم، وتحول أعظم في مصائرهم؛فمنعتهم للرسول ﷺ وجهادهم في نشر دعوته، تعني في واقع الأمر استعداء كل من اتخذ من الوثنية ديناً ومن الشرك معتقداً.

ولهذا فقبل أن يتموا بيعتهم للنبي ﷺ اعترض العباس بن عبادة بن نضلة الأنصاري ت الحديث، لافتاً نظر الأنصار لخطورة تبعات بيعتهم، فقال:« هل تدرون على ما تبايعون هذا الرجل ؟، قالوا : نعم، قال: إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس. فإن كنتم ترون أنكم إذا أنهكت أموالكم مصيبة، وأشرافكم قتلاً أسلمتموه، فمن الآن فهو والله إن فعلتم خزي الدنيا والآخرة. وإن كنتم وافون بما دعوتموه إليه على نهكة الأموال وقتل الأشراف، فهو والله خير الدنيا والآخرة. قالوا: فإنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف. فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفينا بذلك ؟ قال: «الجنة». قالوا: ابسط يدك. فبسط يده فبايعوه.

---

(١) أحمد بن حنبل: المسند (١٤٦٩٤) ٣/٣٣٩، تعليق شعيب الأرنؤوط: حديث صحيح وإسناده حسن.

وفي رواية جابر بن عبد الله تـأن الذي أخذ بيده أسعد بن زرارة ت فقال: «رويداً يا أهل يثرب إنا لم نضرب إليه أكباد المطي إلا ونحن نعلم أنه رسول الله إن إخراجه اليوم مفارقة العرب كافة وقتل خياركم وأن تعضكم السيوف، فأما أنتم قوم تصبرون على السيوف إذا مستكم وعلى قتل خياركم وعلى مفارقة العرب كافة فخذوه وأجركم على الله عز وجل. وإما أنتم قوم تخافون من أنفسكم خيفة فذروه فهو أعذر عند الله. قالوا: يا أسعد بن زرارة أمط عنا يدك فوالله لا نذر هذه البيعة ولا نستقيلها. فقمنا إليه رجلاً رجلاً يأخذ علينا بشرطة العباس ويعطينا على ذلك الجنة »(١).

وثمة ملمح آخر في الحوار يلزم بيانه؛ ويتعلق بتبعات الموقف بعد التمكين للنبي ﷺ، فهل سيتحول عن أهل المدينة ويعود إلى بلده وأهله ويتركهم بعد أن استعدوا جيرانهم من اليهود كما بدا في سؤال أبو الهيثم بن التيهان ؟ ..

لقد أكد النبي ﷺ لابن التيهان بأنه قد جمعه والأنصار مصير واحد لا انفصام فيه مهما كانت التبعات والمآلات، وأن حاله ليس كحال الأدعياء من أصحاب الدعوات الزائفة الذين عندما ينالوا مآربهم يتنصلون من وعودهم وعهودهم، بل وينؤوا بجانبهم عن كل من قدم لهم يد العون والمساعدة، وجسد لهم هذا المعنى في كلماته البليغة «بل الدم الدم والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم».

ويؤكد الواقع التاريخي أن النبي ﷺ لم يحنث في عهده قيد أنملة بعد أن هاجر إليهم، فعندما فتح مكة وأعلن عفوه عن قريش، ظن الأنصار أنه ﷺحنّ إلى عشيرته ورغب في البقاء بمكة، فلما علم ﷺ بذلك قام فيهم قائلاً: « كلا إنـي عبد الله ورسوله هاجرت إلى الله وإليكم والمحيا محياكم والممات مماتكم»(٢).

على أية حال عندما تمت البيعة أمرهم رسول الله ﷺ أن يختاروا من بينهم اثني عشر نقيبا، ليكونوا على قومهم. فأخرجوا منهم: تسعة من الخزرج، وثلاثة من الأوس(٣). وأوصاهم ﷺ بقوله:«أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم، وأنا كفيل على قومي - يعني المسلمين - قالوا: نعم»(٤).

---

(١)أحمد: المسند (١٤٦٩٤) ٣/٣٣٩. تعليق شعيب الأرنؤوط: صحيح لغيره وهذا إسناد ضعيف لسوء حفظ ابن لهيعة لكنه قد توبع.
(٢)مسلم: الصحيح (٤٧٢٢) ٥/١٧٠.
(٣) ابن هشام: السيرة ١/٤٤٣.
(٤) ابن هشام: السيرة ١/٤٤٦.

ولما أوشك القوم على مغادرة المكان بعد تعيين النقباء، علم زعماء قريش أمر البيعة وأدركوا خطورتها، فتوجهوا مسرعين إلى منازل القوم، فغدوا عليهم في الصباح، وقالوا لهم:«يا معشر الخزرج، إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا، وتبايعونه على حربنا، وإنه والله ما من حي من العرب أبغض إلينا، أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم»، فأنكر ذلك مشركو أهل المدينة الذين لم يعلموا بأمر البيعة(١).

وتشير رواية أخرى لابن إسحاق أن قريشاً خرجت في طلب القوم حتى أدركوا منهم سعد بن عبادة ت فأوثقوه ثم أقبلوا به إلى مكة وأخذوا يضربونه، فلم يخلصه من أيديهم سوى جبير بن مطعم والحارث بن حرب، حيث كان يجير لهما قوافلهما التي تمر بيثرب(٢).

(١)ابن هشام: السيرة ٤٤٩/١.
(٢)ابن هشام: السيرة ٤٥٠/١، ٤٥١.

١٩- الهجرة إلى المدينة

ما أن علم المشركون بأمر البيعة الثانية،حتى أخذوا يضيقون على المسلمين بمكة،وينالون منهم بالشتم والأذي، فأذن لهم النبي ﷺ بالهجرة إلى المدينة فراراً بدينهم، لما سئلت عائشة ل عن الهجرة قالت:« كان المؤمنون يفر أحدهم بدينه إلى الله تعالى وإلى رسوله ﷺ مخافة أن يفتن عليه»(١)، ويقول بلال ابن رباح ﷺ: «اللهم العن شيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة وأمية بن خلف كما أخرجونا من أرضنا إلى أرض الوباء(٢)»(٣). لم يبق من الجماعة المؤمنة بمكة إلا رسول الله ﷺ، وأبو بكر، وعلي، أو مفتون، أو مريض، أو ضعيف عن الخروج(٤).

وتجدر الإشارة إلى أن الهجرة إلى المدينة جاءت بتوجيه من رؤية رآها الرسول ﷺ في منامه:«رأيت في المنام أني أهاجر من مكة إلى أرض بها نخل، فذهب وهلي (أي ظني) إلى أنها اليمامة أو الهجر، فإذا هي المدينة يثرب..»(٥).

أوائل المهاجرين إلى المدينة:

يعد أبو سلمة بن عبد الأسد ت، من حيث الأسبقية، أول من هاجر من الصحابة، وكان ذلك قبل بيعة العقبة الأولى بسنة ، فبعد أن آذته قريش إثر عودته من الحبشة، توجه للهجرة إلى المدينة.

وتحكي أم المؤمنين أم سلمة ل قصة هجرة أبو سلمة إلى المدينة، حيث حملها وولدها سلمة على بعير له، ثم خرج بهما متوجها إلى المدينة، فلما رأوه عشيرة أم سلمة قاموا إليه ونزعوا خطام البعير، وأمسكوا بأم سلمة وولدها،فغضب عند ذلك بنو عبد الأسد رهط أبي سلمة، فأخذوا منها ولدها غصباً.

تقول أم سلمة:« ففرق بيني وبين زوجي وبين ابني». فكانت تخرج كل غداة فتجلس بالأبطح(٦)، فما تزال تبكي حتى تمسي، وظلت على هذا الحال سنة أو قريباً منها، إلى أن مرّ بي رجل من بني عمومتها فأشف لحالها، وتحدث لأهلها «ألا تخرجون هذه المسكينة فرّقتم بينها وبين زوجها وبين ولدها ؟»، فأذنوا لها أن تلحق بزوجها، ومن جانبهم ردّ بنو عبد الأسد- عشيرة أبوسلمة- إليها ولدها.

---

(١)البخاري: الصحيح (٣٦٨٧)٣٦٨٧/٣.
(٢)البخاري: الصحيح (١٧٩٠)١٤١٦/٢.
(٣)يقصد المدينة.
(٤) ابن سعد: الطبقات ١٧٥/١.
(٥) البخاري: الصحيح (٦٦٢٩) ٢٥٧٩/٦.
(٦) الأبطح جزء من واد في مكة يقع في منطقة المعلاة. البلادي: معجم المعالم الجغرافية ص٣٥.

فحملت ولدها على بعيرها، ثم خرجت متجهة إلى المدينة، حتى إذا كنت بالتنعيم لقيت عثمان بن طلحة بن أبي طلحة أخا بني عبد الدار وهو مشرك، فسألها عن وجهتها، فأخبرته، ولما علم أنه ليس معها سوى ولدها، قال لها: والله مالك من مترك فأخذ بخطام البعير، ليصطحبها إلى المدينة (يثرب) خشية أن يصيبها مكروه.

تقول أم سلمة: « فوالله ما صحبت رجلاً من العرب قط أرى أنه كان أكرم منه، كان إذا بلغ المنزل أناخ بي، ثم استأخر عني، حتى إذا نزلت عنه استأخر ببعيري فحط عنه، ثم قيده في الشجرة، ثم تنحّى إلى الشجرة فاضطجع تحتها، فإذا دنا الرواح قام إلى بعيري فقدّمه فرحّله، ثم استأخر عني فقال: اركبي، فإذا ركبت فاستويت على بعيري أتى فأخذ بخطامه، فقاد بي حتى ينزل بي».

ولم يزل يصنع ذلك حتى قدم بها إلى المدينة، فلما اقترب من قرية بني عمرو ابن عوف بقباء، قال لها: زوجك في هذه القرية - وكان أبو سلمة بها نازلاً، ثم انصرف راجعاً إلى مكة

ثم قدم بعد أبي سلمة إلى المدينة عامر بن ربيعة، ومعه امرأته ليلى بنت أبي حَثْمة، وكانا من السابقين الأولين، وهاجرا من قبل إلى الحبشة. كما تعد ليلى بنت أبي حَثْمة أول ظعينةمن المهاجرين قدمت المدينة في الهجرة.

أما أول من هاجر بعد بيعة العقبة الثانية فهما: مصعب بن عمير، وابن أم مكتوم، ثم عمار بن ياسر

ومن قصص الهجرة المشهورة بعد بيعة العقبة الثانية، قصة صهيب الرومي ت، حيث اعترضه نفر من قريش أثناء محاولته الهجرة، وقالوا له : «أتيتنا صعلوكاً حقيراً، فكثر مالك عندنا، وبلغت الذي بلغت، ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك»فساوموه على أخذ ماله نظيرأن يتركوه، فعاد معهم إلى مكة ودلهم على موضع ماله، وكانت أواقي من ذهب، ثم خرج صهيب مهاجراً حتى قدم على رسول ﷺوسلم بقباء قبل أن يتحول منها، فلما رآه قال:«يا أبا يحيى ربح البيع»، فقال صهيب:« يا رسول الله ما سبقني إليك أحد وما أخبرك إلا جبرائيل عليه السلام»(١). وعن أنس رضي الله عنه قال: «ونزلت على النبي ﷺ ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴾ فلما رآه النبي ﷺ قال: أبا يحيى ربح البيع قال: وتلا عليه الآية»(٢).

---

(١)الحاكم:المستدرك (٥٧٠٦) ٤٥٢/٣ قال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وصححه الذهبي.

(٢)الحاكم:المستدرك (٥٧٠٠) ٤٥٠/٣، قال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.

ومنها قصة هجرة عمر بن الخطاب وعياش بن أبي ربيعة وهشام بن العاصي حيث تواعدوا للخروج إلى المدينة،وأن يجتمعوا عند التناضب من أضاة(١) بني غفار فوق سرف، وتعاهدوا على أن من حبس فليمض صاحباه. فالتقى عمر وعياش بن أبي ربيعة عند التناضب، وحبس عنهما هشام وفتن فافتتن.

فلما قدم عمر وعياش المدينة نزلا في بني عمرو بن عوف بقباء، وخرج أبو جهل بن هشام والحارث بن هشام إلى المدينة في طلب عياش بن أبي ربيعة، وكان ابن عمهما وأخاهما لأمهما، فكلماه بأن أمه قد نذرت أن لا يمس رأسها مشط، ولا تستظل من شمس حتى تراه، فرق لها، فنصحه عمر بأن يحذرهم لأنهم يريدون أن يفتنوه عن دينه. فغلبت عليه عاطفته حيال أمه وأشفق عليها إلا أن يخرج معهما،وهما في الطريق إلى مكة انقضا عليه فأوثقاه وربطاه وفتناه فافتتن، ثم دخلا به مكة، ثم قالا: يا أهل مكة، هكذا فافعلوا بسفهائكم كما فعلنا بسفيهنا هذا.

ويذكر ابن إسحاق أنه لما نزل قول الله في الذين فتنوا في دينهم من المهاجرين ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾

أرسل عمر بن الخطاب ت بصحيفة إلى هشام بن العاصي، كتب فيها بيده هذه الآيةفوصلته وقرأها وهو بذي طوى(٢)، فاستغلق فهمه، فدعا الله: اللهم فهمنيها. يقول هشام: « فألقى الله تعالى في قلبي أنها إنما أنزلت فينا، وفيما كنا نقول في أنفسنا.. فرجعت إلى بعيري، فجلست عليه فلحقت برسول الله ﷺ وهو بالمدينة»

ومن صنوف قصص الهجرة، أن نفراً من الأنصار الذين بايعوا رسول الله ﷺ، لما قدم المهاجرون الأوائل إلى قباء خرجوا إلى رسول الله ﷺ بمكة، وظلوا بها إلى أن هاجر ﷺ إلى المدينة ثم قدموا إليها، ولهذا يقال لهم:«مهاجرون أنصاريون» وهم: ذكوان بن عبد قيس بن خلدة الزّرقي، وعقبة بن وهب بن كلدة، والعبّاس بن عبادة بن نضلة، وزياد بن لبيد بن ثعلبة الخزرجي، وربما كان باعثهم على هذا الصنيع الاطمئنان على حال النبي ﷺ، وتقديم يد العون والمساعدة له إذا احتاج إلى ذلك.

---

(١) التناضب:نوع من الشجر المعروف، والأضاة: الغدير من الماء.البلادي: معجم المعالم الجغرافية ص٣٠١.

(٢)ذي طوى: واد من أودية مكة يقع في شمالها. البلادي: معجم المعالم الجغرافية ص٣٣٠.

أما آخر من هاجر إلى المدينة من الصحابة، فتشير بعض الروايات إلى عبد الله ابن جحش ت، وكان قد كف بصره، حيث هاجر بأهله وماله مكتتماً من قريش حتى قدم المدينة على رسول الله ﷺ، أما داره بمكة فسطا عليها أبو سفيان بن حرب وباعها(١).

هجرة الرسول ﷺإلى المدينة:

أقام رسول الله ﷺ بمكة ينتظر أن يؤذن له في الهجرة، ولم يتخلف معه بمكة أحد من المهاجرين إلا علي بن أبي طالب وأبو بكر الصديق ب، أو من حبس أو فتن. وكان أبو بكر كثيراً ما يستأذن رسول الله ﷺ في الهجرة، فيقول له رسول الله ﷺ: «لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحباً» فيطمع أبو بكر أن يكونه، فابتاع أبو بكر راحلتين فاحتبسهما في داره يعلفهما إعدادا لذلك.

لما أيقنت قريش أن المسلمين قد أصبحوا في عزة ومنعة بالمدينة، عقدت مؤتمراً في دار الندوة يتشاورون فيها ما يصنعون في أمر رسول الله ﷺ حين خافوه، وكان يشاركهم في ذلك إبليس جاءهم في هيئة شيخ نجدي، ثم قال قائل منهم: احبسوه في الحديد وأغلقوا عليه باباً. فقال الشيخ النجدي: لا والله ما هذا لكم برأي والله لئن حبستموه كما تقولون ليخرجن أمره من وراء الباب الذي أغلقتم يكاثروكم به حتى يغلبوكم على أمركم. ثم قال قائل منهم: نخرجه من بين أظهرنا، فننفيه من بلادنا، فإذا أخرج عنا فوالله ما نبالي أين ذهب ولا حيث وقع إذا غاب عنا وفرغنا منه فأصلحنا أمرنا وألفتنا كما كانت. فقال الشيخ النجدي: لا والله ما هذا لكم برأي ألم تروا حسن حديثه وحلاوة منطقه وغلبته على قلوب الرجال بما يأتي به.

وفي النهاية خرج عليهم أبو جهل بن هشام بالقول الفصل، وهو أن يؤخذ من كل قبيلة فتى شاباً جليداً نسيباً، ثم يعطوا كل واحد منهم سيفاً صارماً، ثم يعمدوا إليه فيضربوه بها ضربة رجل واحد فيقتلوه، فيتفرق دمه في القبائل جميعاً، ولا يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً، فاستحسن القوم هذا الرأي وتفرقوا وهم مجمعون عليه(٢).

وإذا كان الباعث العقدي وراء الدفع بقريش لاتخاذ هذا الموقف الحاسم، فلا يمكن نكران أثر الباعث الاقتصادي في هذا الأمر؛ فالمدينة تقع على طريق التجارة إلى الشام، وهجرة الرسول ﷺ إليها تعني التمكين له ولأتباعه، الأمر الذي يمثل تهديداً مباشر لرحلات التجارة المكية إلى بلاد الشام، وهذا ما سيجرى فعلاً حين تعرض المسلمون لقافلة أبي سفيان وكان ذلك سبباً لغزوة بدر.

---

(١)ابن هشام: السيرة ٤٧٠/١، الهيثمي: مجمع الزوائد (٩٩٢٦) ٨٠/٦. فيه عبد الله بن شبيب وهو ضعيف.

(٢) ابن هشام: السيرة ٤٨١/١، ٤٨٢.

والحقيقة إن هذا الرأي الذي أطبقت عليه قريش في دار الندوة، وراءه باعث اقتصادي يضاف إلى الباعث العقدي، فالمدينة تقع على طريق التجارة إلى الشام، وهجرة الرسول ﷺ إليها تعني التمكين له ولأتباعه، الأمر الذي يمثل تهديداً مباشر لرحلات التجارة المكية إلى بلاد الشام، وهذا ما سيجرى فعلاً حين تعرض المسلمون لقافلة أبي سفيان وكان ذلك سبباً لغزوة بدر.

ومهما يكن من أمر أتى جبريل عليه السلام رسول الله ﷺ فقال:« لا تبت هذه الليلة على فراشك الذي كنت تبيت عليه». فلما كانت عتمة من الليل اجتمع فتيان قريش على باب بيته ﷺ يرصدونه متى ينام فيثبون عليه، فلما رأى رسول الله ﷺمكانهم أمر علي بن أبي طالب أن يبيت في فراشه ويبقى في مكة، ليؤدي عن رسول الله ﷺ الأمانات والودائع التي كانت عنده لقريش، فلم يكن بمكة أحد عنده شيء يخشى عليه إلا أودعه عند رسول الله ﷺ لما يعلموه من صدقه وأمانته(١).

ثم خرج عليهم رسول الله ﷺفأخذ حفنة من تراب فجعل ينثرها على رؤوسهم وهو يتلو هؤلاء الآيات من سورة يس: ﴿يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ إلى قوله ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ (،فحجب الله تعالى أبصارهم عنه فلم يرونهﷺ حتى فرغ من قراءة هذه الآيات.

وكان مما أنزل الله تعالى من القرآن في ذلك اليوم وما كانوا أجمعوا له ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾(٢) وقول الله عز وجل: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ﴾ غادر رسول الله ﷺبيته في ليلة ٢٧ من شهر صفر سنة ١٣ من النبوة، الموافق ١٢من سبتمبر سنة ٦٢٢م

ثم توجه إلى دار أبي بكر ت، وكان ذلك وقت الهاجرة حيث منتصف النهار وشدة الحر،ولم يكن عند أبي بكر رضي الله عنه إلا عائشة وأختها أسماء بنت أبي بكر ، فأخبر أبابكر رضي الله عنه إن الله قد أذن لي في الخروج والهجرة. فسر أبو بكر رضي الله عنه، وقال: فالصحبة بأبي أنت وأمي يا رسول الله ؟ قال: نعم. تقول عائشة رضي الله عنها: فوالله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم أن أحدا يبكي من الفرح حتى رأيت أبا بكر رضي الله عنه يبكي يومئذ.

(١) ابن هشام: السيرة ٤٨٢/١-٤٨٥.
(٢)سورة الأنفال: آية ٣٠.

ولما أراد أبو بكر رضي الله عنه أن يهب النبي ﷺ إحدى راحلتيه التي أعدهما للهجرة أبى النبي ﷺ إلا أن يدفع ثمنها. ثم قامت عائشة وأسماء بنتا أبي بكر بتجهيز الراحلتين بالزاد، وسميت أسماء من هذا الموقف بـ«ذات النطاقين»، لكونها قطعت ناطقها شقينفربطت بأحدهما السقاء، وبالآخر فم الجراب الذي احتوى الزاد[١].

واستأجرا عبد الله بن أريقط وكان مشركاً، ليدلهما على الطريق فدفعا إليه راحلتيهما وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال[٢]، ولم يعلم بخروج رسول الله □، حين خرج إلا علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وأبو بكر الصديق رضي الله عنه، وآل أبي بكر[٣].

كان من المفترض أن يتجه النبي ﷺ هو وأبو بكر شمالاً صوب المدينة، لكنه يدرك أن قريشاً تترقب سيره على طريق القوافل المتجه إليها، ولذلك عمد إلى السير جنوب مكة قاصداً غار بثور إعمالاً للحيطة الحذر، فأتياه ليلاً، فدخل أبو بكر ت قبل رسول الله ﷺ، ليقي رسول الله ﷺ بنفسه من أي هوام أو سباع ربما تسكن الغار، فلما دخله وجد في جانبه ثقباً فشق إزاره وسدها به، وبقي منها اثنان فألقمهما رجليه، ثم قال لرسول الله ﷺ: ادخل. فدخل رسول الله ﷺ « ووضع رأسه في حجره ونام، فلدغ أبو بكر في رجله من الجحر ولم يتحرك مخافة أن ينتبه رسول الله ﷺ، فسقطت دموعه على وجه رسول الله ﷺ، فقال:«ما لك يا أبا بكر؟» قال: لدغت فداك أبي وأمي فتفل رسول الله ﷺفذهب ما يجده..»(٤).

أقام رسول الله ﷺ ومعه أبو بكر في الغار ثلاثاً. وفي تلك الفترة أمر أبو بكر رضي الله عنه ابنه عبد الله بن أبي بكر أن يسمع من قريش ما يأتمرون به، وما يقولون في شأن رسول الله ﷺوأبي بكر رضي الله عنه، ثم يأتيهما إذا أمسى فيخبرهما الخبر[٥].

وأمر أبو بكر رضي الله عنه مولاه عامر بن فهيرة رضي الله عنه أن يرعى غنمه بين رعيان أهل مكة صباحا، فإذا أمسى أراح عليهما غنم أبي بكر فاحتلبا وذبحا، ليس هذا فحسب بل كان يتبع عامر بن فهيرة بغنمه أثر عبد الله بن أبي بكر حين يغادر الغار في الصباح الباكر حتى يغيبه ويمحوه[٦].

---

(١) البخاري: الصحيح (٢٨١٧) ١٠٨٧/٣، (٣٦٩٢) ١٤١٧/٣، (٥٠٧٣) ٢٠٦٠/٥.
(٢)البخاري: الصحيح (٣٦٩٢) ١٤١٧/٣.
(٣) ابن هشام: السيرة ٤٨٥/١.
(٤)التبريزي: مشكاة المصابيح(٦٠٢٥) ٣١٣/٣.
(٥) البخاري: الصحيح (٣٦٩٢) ١٤١٧/٣، ابن هشام: السيرة ٤٨٥/١.
(٦) البخاري: الصحيح (٣٦٩٢) ١٤١٧/٣، ابن هشام: السيرة ٤٨٥/١.

وتذكر أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها أنه لما خرج رسول الله ﷺ وأبو بكر رضي الله عنه أتاها نفر من قريش، فيهم أبو جهل ابن هشام، فوقفوا على باب أبي بكر رضي الله عنه فخرجت إليهم فقالوا لها: أين أبوك يا بنت أبي بكر ؟ فقالت: لا أدري والله أين أبي ؟ فرفع أبو جهل يده فلطم خدها لطمة شديدة.

وانتشر المشركون في الجبال والوديان يبحثون عن النبي ﷺ، وكانت قريش قد جعلت مائة من الإبل جائزة لمن يرده عليهم[1]. ونجحوا في النهاية إلى أن يصلوا إلى باب الغار ويروي ابن عباس رضي الله عنه أنهم:« اقتصوا أثره فلما بلغوا الجبل خلط عليهم فصعدوا في الجبل فمروا بالغار فرأوا على بابه نسج العنكبوت، فقالوا لو دخل ها هنا لم يكن نسج العنكبوت على بابه فمكث فيه ثلاث ليال»[2]، وذلك من حماية الله رسوله ﷺ[3].

وعن لحظة وقوفهم بباب الغار، يقول أبو بكر رضي الله عنه:« كنت مع النبي ﷺ في الغار، فرفعت رأسي فإذا أنا بأقدام القوم، فقلت: يا نبي الله لو أن بعضهم طأطأ بصره رآنا، قال: اسكت يا أبا بكر اثنان الله ثالثهما »[4].

وفي ليلة الاثنين غرة ربيع الأول سنة١هـ/ ١٦ سبتمبر سنة ٦٢٢م[5]، أتاهما صاحبهما عبد الله بن أريقط الذي استأجراه ببعيريهما الذي واعداه أن يقدم عليهما غار ثور بعد ثلاث ليال[6]، ثم ركبا وانطلقا وأردف أبو بكر الصديق رضي الله عنه عامر ابن فهيرة مولاه خلفه ليخدمهما في الطريق[7].

وتذكر أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها، أن أبا بكر لما خرج مع رسول الله ﷺ احتمل معه رضي الله عنه ماله كله وقدره خمسة آلاف درهم أو ستة آلاف..[8].

كان وقع الهجرة شديداً على النبي ﷺ قاس على نفسه، فعند خروجه من مكة، التفت بوجهه إليها قائلاً: «..والله إنك لخير أرض الله وأحب أرض الله إلى الله ولولا أني أخرجت منك ما خرجت»[9].

---

(١) البخاري: الصحيح (٣٤١٩) ١٣٢٣/٣، الذهبي: تاريخ الإسلام ٣٣٠/١.
(٢) الإمام أحمد: المسند (٣٢٥١) ٣٤٨/١. يعلق ابن كثير على هذه الرواية بقوله:« هذا إسناد حسن وهو من أجود ما روي في قصة نسج العنكبوت على فم الغار ». البداية والنهاية ٢٢١/٣.
(٣) ابن كثير: البداية والنهاية ٢٢١/٣.
(٤) البخاري: الصحيح (٣٧٠٧) ١٤٢٧/٣.
(٥) المنصور فوري: رحمة للعالمين ص٨٠.
(٦) البخاري: الصحيح (٣٦٩٢) ١٤١٧/٣.
(٧) البخاري: الصحيح (٣٦٩٢) ١٤١٧/٣، ابن هشام: السيرة ٤٩١/١.
(٨) ابن هشام: السيرة ٤٨٩/١.
(٩) الترمذي: السنن (٣٩٢٥) ٧٢٢/٥. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب صحيح.

اتجه عبد الله بن أريقط غرباً نحو الساحل، حتى إذا وصل إلى طريق لم يألفه الناس اتجه شمالاً على مقربة من شاطئ البحر الأحمر، وسلك طريقاً غير معهود[١].

ويروي أبو بكرت أنه في اليوم الثاني من الهجرة ظل يسير مع النبيﷺ إلى أن جاء وقت الظهيرة، وخلا الطريق فلا يمر فيه أحد، وإذا بصخرة كبيرة لها ظل فنزلوا عندها، فسوى أبو بكرت يده مكانا للنبي ﷺ ينام عليه وبسطت فيه فروة، وقال له: نم يا رسول الله. ثم خرج أبو بكر ؓ يراقب الطريق، فإذا براع مقبل بغنمه إلى الصخرة يريد أن يستظل بها، فسأله أن يحتلب له من بعض غنمه، فأخذ الراعي شاة فحلب في إناء قليل من لبن فأتى رسول الله ﷺ فوقف عنده حتى استيقظ فقدم اللبن ليشرب، ثم أخذوا في السير إلى المدينة بعد ما مالت الشمس[٢].

وقد أشرنا من قبل أن قريشاً جعلت جائزة مائة من الإبل لمن يأتيهمبالرسول ﷺ. وهذا ما دفع سراقة بن مالك بن جعشم للبحث عن النبي ﷺ، حتى أخبره رجل من قومه باتجاه سير النبي ﷺ نحو الساحل، فسارع سراقة بملاحقتهم وتتبع آثارهم، إلى أن تمكن في النهاية من الوصول إلى النبي ﷺ،وهنا دعا عليه النبي ﷺ فساخت قدما فرسه حتى بلغتا الركبتين، فقال سراقة: « إني أراكما قد دعوتما عليّ فادعوا لي فالله لكما أن أرد عنكما الطلب، فدعا له النبي ﷺفنجا فجعل لا يلقى أحداً إلا قال كفيتكم ما هنا فلا يلقى أحدا إلا رده قال ووفى لنا »(٣).

وذكر الحسن أن رسول الله ﷺ قال لسراقة بن مالك:« كيف بك إذا لبست سواري كسرى ؟. قال فلما أتى عمر بسواري كسرى ومنطقته وتاجه دعا سراقة بن مالك فألبسه إياهما.. وقال له ارفع يديك، فقال: الله أكبر الحمد لله الذي سلبهما كسرى بن هرمز الذي كان يقول أنا رب الناس، وألبسهما سراقة بن مالك بن جعشم أعرابي رجل من بني مدلج ».

ثم مر رسول الله ﷺ أثناء مسيره على خيمة أم معبد الخزاعية، وكانت امرأة كهلة قوية تحتبي بفناء الخيمة، ثم تطعم وتسقى من مر بها، فسألاها: هل عندها شيء ؟ فقالت: والله لو كان عندنا شيء ما أعوزكم القرى، والشاء عازب، وكانت سنة شهباء، فنظر رسول الله ﷺإلى شاة في جانب الخيمة، فقال:«ما هذه الشاة يا أم معبد» ؟ قالت: شاة خلفها الجهد عن الغنم

---

(١) ابن هشام: السيرة ٤٩١/١.
(٢) يراجع نص الرواية في البخاري: الصحيح (٣٤١٩)١٣٢٣/٣.
(٣)ينظر نصوص الروايات في البخاري: الصحيح (٣٤١٩) ١٣٢٣/٣، (٣٦٩٦) ١٤٢٢/٣، (٣٦٩٣) ١٤٢٠/٣، ابن هشام: السيرة ٤٩٠/١.

فقال: «هل بها من لبن» ؟ قالت: هي أجهد من ذلك، فقال: «أتأذنين لي أن أحلبها» ؟ قالت: نعم، بأبي وأمي، إن رأيت بها حلباً فاحلبها، فمسح رسول الله ﷺ بيده ضرعها، وسمى الله ودعا، فدرت باللبن، فدعا بإناء لها، فحلب فيه حتى علته الرغوة فسقاها فشربت حتى رويت، وسقى أصحابه حتى رووا، ثم شرب، وحلب فيه ثانياً، حتى ملأ الإناء، ثم غادره عندها، فارتحلوا(١).

ثم جد الرسول ﷺ في السير ﷺحتى وصل العرج(٢)، فالتقى بلصين من قبيلة أسلم عرض عليهما الإسلام فأسلما، وكان يقال لهما «المهانان»، فقال لهما النبي ﷺ: «بل أنتما المكرمان»، وأمرهما أن يقدما عليه المدينة.

كما التقى النبي ﷺ أثناء مسيره ليلاً إلى المدينة بسبعين من بني أسلم، فسأل أحدهم، فقال له: من أنت؟، قال: بريدة، فالتفت إلى أبي بكرت فقال:« برد أمرنا وصلح، ثم قال: وممن؟، قال: من أسلم، قال لأبي بكر: سلمنا، ثم قال: ممن؟، قال: من بني سهم قال: خرج سهمك. فأسلم بريدة والذين معه جميعاً »(٣).

وممن لقيهم النبي ﷺ وهو في مسيره إلى المدينة الزبير بن العوام ت ومعه ركب من المسلمين كانوا تجاراً قافلين من الشام، فكسا الزبير بن العوام ت رسول الله ﷺوأبا بكرت ثياباً بيضاء(٤).

واستمر النبي ﷺ في سيره حتى وصل بأمان إلى المدينة وكان أول نزوله بقباء(٥). وذلك يوم الاثنين ٨ ربيع الأول سنة ١٣ من البعثة، وهي السنة الأولى من الهجرة/ الموافق ٢٣ سبتمبر سنة ٦٢٢م(٦).

---

(١) ابن قيم: زاد المعاد ٣/ ٥٥، ٥٦.
(٢) العرج: واد فحل من أودية الحجاز، على طريق مكة من المدينة، وسمي بالعرج لتعرجه، يبعد العرج عن المدينة مسافة ١١٣ كيلا. البلادي: على طريق الهجرةص٢٣٣.
(٣) الذهبي: تاريخ الإسلام ٣٣٠/١.
(٤) البخاري: الصحيح (٣٦٩٤)٣ /١٤٢١.
(٥)ابن هشام:السيرة ٤٩٢/١.
(٦) المنصورفوري: رحمة للعالمين ص٨٤.

ثبت المصادر والمراجع

ابن الأثير: أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم (ت٦٠٦هـ)

- النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق: محمود محمد الطناحي، القاهرة، المكتبة الإسلامية، د.ت.

ابن الأثير: محمد بن عبد الواحد الشيباني (ت٦٣٠هـ)

- الكامل في التاريخ، تحقيق: عادل أحمد الرفاعي، بيروت، ط١، دار إحياء التراث العربي، ١٤١٧هـ- ١٩٩٦م.

الأصبهاني: أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق (ت٤٣٠هـ)

- دلائل النبوة، تحقيق: محمد رواس قلعه جي، عبد البر عباس، بيروت، ط٢، دار النفائس، ١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م.

ابن إسحاق: محمد بن إسحاق بن يسار المطلبي (ت١٥٢هـ):

-السيرة النبوية، تحقيق: سهيل زكار، بيروت، ط١، دار الفكر، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.

الآلوسي: محمد شكري

- بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، القاهرة، ١٩٢٤م.

أندراوس:عزت

-النصرانيةhttp://www.coptichistory.org/new_page_341.htm

البخاري: محمد بن إسماعيل البخاري (ت٢٥٦هـ)

- الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وأيامه، تحقيق: مصطفى ديب البغا، بيروت، ط٣، دار ابن كثير، ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م.

البزار: أبو بكر أحمد بن عمرو البزار (ت٢٩٢هـ)

- المسند، تحقيق: عادل سعد، المدينة المنورة، ط١، مكتبة العلوم والحكم، ٢٠٠٩م.

ابن بطال: أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك (ت ٤٤٩هـ)

- شرح صحيح البخاري، تحقيق: ياسر إبراهيم، الرياض،ط٢، مكتبة الرشد، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.

- السجالات الكريستولوجية في القرنين الرابع والخامس.
www.metroplit/bishoy.org/files/Christology/ar.doc

البيهقي: أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي (ت٤٥٨هـ):

- دلائل النبوة، تحقيق: عبد المعطي قلعجي، بيروت، ط١، دار الكتب العلمية، ١٤٠٥ه

- السنن الكبرى، تحقيق، محمد عبد القادر عطا، مكة المكرمة، مكتبة دار الباز، ١٤١٤هـ ١٩٩٤م.

البلادي: عاتق غيث

- على طريق الهجرة، ط١، دار مكة للنشر والتوزيع، د.ت.

- معالم مكة التاريخية والأثرية، مكة الكرمة، ط١، دار مكة، ١٤٠٠هـ ١٩٨٠م.

- معجم المعالم الجغرافية الواردة في السيرة النبوية، مكة المكرمة، ط١، دار مكة للنشر والتوزيع، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م.

البلاذري: أحمد بن يحيى بن جابر (ت٢٧٩هـ)

- أنساب الأشراف، تحقيق: سهيل زكار ورياض الزركلي، بيروت، ط١، دار الفكر، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.

البوطي: محمد سعيد رمضان

- فقه السيرة النبوية مع موجز لتاريخ الخلافة الراشدة، دمشق، ط٢٥، دار الفكر، ١٤٢٦هـ.

الترمذي: محمد بن عيسي الترمذي (ت٢٧٩هـ)

- سنن الترمذي، تحقيق: أحمد شاكر وآخرين، بيروت، دار إحياء التراث العربي، د.ت.

التبريزي: محمد عبد الله (ت٧٤١هـ)

- مشكاة المصابيح، تحقيق: تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، بيروت، ط٢، المكتب الإسلامي، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

تسيهر: جولد

- العقيدة والشريعة في الإسلام، ترجمة: محمد يوسف وآخرون، القاهرة، ط٣، دار الكتب الحديثة، د.ت.

ابن الجوزي: أبو الفرج عبد الرحمن بن أبي الحسن (ت٥٩٧هـ)

- الوفا بتعريف فضائل المصطفى، دار المعرفة، د.ت.

الحاكم: أبو عبد الله محمد بن عبد الله (ت٤٥٠هـ)

- المستدرك على الصحيحين، تحقيق: مصطفى عبد القادر، بيروت، دار الكتب العلمية،١٤١١هـ-١٩٩٠م.

ابن حبان: محمد بن حبان بن أحمد البستي (ت٣٥٤هـ)

- الصحيح، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، بيروت، ط٢، مؤسسة الرسالة، ١٤١٤هـ- ١٩٩٣م.

ابن حجر: أبو الفضل أحمد بن علي بن محمدالعسقلاني (ت٥٨٢هـ)

- الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلى محمد معوض، بيروت، ط١، دار الكتب العلمية، ١٤١٥هـ.

- فتح الباري شرح صحيح البخاري، بيروت، دار المعرفة، ١٣٧٩هـ.

ابن حزم: أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد (ت٤٥٦هـ)

- الفصل في الملل والنحل، القاهرة: مكتبة الخانجي، د.ت.

الحلبي: علي بن إبراهيم بن أحمد الحلبي(ت١٨٤١هـ)

- السيرة الحلبية (إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون)، بيروت، دار المعرفة، د.ت.

حمادة: فاروق

- مصادر السيرة النبوية وتقويمها، دمشق، ط٣، دار القلم، د.ت.

ابن حنبل: أحمد بن حنبل الشيباني (ت٢٤١هـ)

- المسند، بيروت، ط٥، المكتب الإسلامي، ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م.

-المسند، تحقيق: أحمد محمد شاكر، القاهرة، ط١، دار الحديث، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.

الحريري:أبو موسى الحريري

-قس ونبي http://www.servant13.net/qis/warqa11.htm

الحوفي: أحمد محمد الحوفي

- الحياة العربية من الشعر الجاهلي، القاهرة، ط٢، مكتبة نهضة مصر، د.ت.

ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد الحضرمي (ت٨٠٨هـ)

- المقدمة، بيروت، دار القلم،١٩٨٤م.

ابن خلكان: شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر (ت٦٨١هـ).

- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق:إحسان عباس، بيروت، ط١، دار صادر، ١٩٩٤م.

خليل: عماد الدين خليل

- دراسات في السيرة النبوية، بيروت، ط٣، مؤسسة الرسالة، ١٣٩٨هـ-١٩٧٨م

ابن خياط: خليفة بن خياط بن أبي هبيرة العصفري (ت٢٤٠هـ)

- تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق: أكرم ضياء العمري، بيروت، ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٣٩٧هـ.

الدارقطني: علي بن عمر أبو الحسن الدارقطني (ت٣٨٥هـ)

- السنن، تحقيق: السيد عبد الله هاشم يماني المدني، دار المعرفة، بيروت، ١٣٨٦هـ - ١٩٦٦م.

أبو داود: سليمان بن الأشعث (ت٢٠٢هـ)

- السنن، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت، دار الفكر، د.ت.

دراز: محمد عبد الله

- مدخل إلى القرآن الكريم، الكويت، دار القلم،١٤٠٠هـ-١٩٨٠م.

دويدار: أمين دويدار

- صور من حياة الرسول ﷺ، القاهرة، ط٥، دار المعارف، ١٩٨٣م.

الذهبي: محمد بن أحمد بن عثمان (ت٧٤٨هـ)

- تاريخ الإسلام،تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، القاهرة، ط١، دار الغد العربي، ١٩٩٦م.

- تذكرة الحفاظ، بيروت، دار إحياء التراث العربي، د.ت.

رزق الله:مهدي رزق الله

- السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، الرياض، ط١، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ١٤١٢هـ-١٩٩٢م.

رضا: محمد رشيد رضا (ت١٣٥٤هـ)

-تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م.

أبو زهرة: محمد.

- محاضرات في النصرانية، القاهرة، ط٣، دار الفكر العربي، د.ت.

سالم: عبد العزيز سالم

- تاريخ الدولة العربية، الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، د.ت.

ابن سعد: محمد سعد بن منيع الزهري (ت٢٣٠هـ)

- الطبقات الكبرى، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، بيروت، ط١، دار الكتب العلمية، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م.

السمهودي: أبو الحسن علي بن عبد الله بن أحمد (ت٩١١هـ)

- وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى، بيروت، دار الكتب العلمية، د.ت.

السهيلي: أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله السهيلي (ت٨٥١هـ)

- الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، تحقيق: عمر عبد السلام السلامي، بيروت، ط١،دار إحياء التراث العربي، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م.

ابن سيد الناس:أبو الفتح محمد بن محمد اليعمري (ت ٧٣٤هـ)

- عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، القاهرة، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، د.ت.

السيوطي:عبد الرحمن بن أبي بكرالسيوطي(ت٩١١هـ)

- أسباب النزول، القاهرة، دار المنار للنشر والتوزيع، د.ت.

ابن أبي سلمى: زهير بن أبي سلمى

- ديوان زهير بن أبي سلمى، شرح وتقديم: علي حسن فاعور، بيروت:، ط١، دار الكتب العلمية، ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م.

شُرَّاب: محمد بن محمد حسن

- المعالم الأثيرة في السنة والسيرة، بيروت، ط١، دار القلم، ١٤١١ه.

الشربينى: عماد السيد

- رد شبهات حول عصمة النبىﷺفى ضوء السنة النبوية الشريفة، القاهرة، ط١، مطابع دار الصحيفة، ٢٠٠٣م.

شلبي: أحمد

- المسيحية، القاهرة، ط٣، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٧م.

الشهرستاني: أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبى بكر (ت ٥٤٨هـ)

- الملل والنحل، تحقيق: أحمد فهمي، بيروت، ط٢، دار الكتب العلمية، ١٤١٣هـ ١٩٩٢م.

الصالحي: محمد بن يوسف الصالحي الشامي (ت٩٤٢هـ).

- سبيل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، تحقيق: تحقيق: عادل عبد الموجود، علي محمد معوض، بيروت، ط١، دار الكتب العلمية، ١٤١٤ هـ ١٩٩٣م.

الصَّلابي: عَلي محمد محمد

- السيرة النبوية، بيروت، ط٧، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.

الطبراني: أبو القاسم سليمان بن أحمد (ت٣٦٠هـ)

- المعجم الكبير، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد، الموصل، ط٢، مكتبة العلوم والحكم، ١٤٠٤هـ-١٩٨٣م.

الطبري: محمد بن جرير الطبري (ت٣١٠هـ)

- تاريخ الرسل والملوك، بيروت، ط١، دار الكتب العلمية، ١٤٠٧هـ.

- جامع البيان،تحقيق: أحمد محمد شاكر، بيروت، ط١، مؤسسة الرسالة، ١٤٢٠هـ ٢٠٠٠م.

طرهوني: محمد رزق

- السيرة النبوية الصحيحة، القاهرة، ط٢، دار ابن تيمية للطباعة والنشر، ١٤١٠هـ.

ابن عبد البر: يوسف بن عبد الله القرطبي (ت٤٦٣هـ)

- الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق: علي محمد البجاوي، بيروت، ط١، دار الجيل، ١٤١٢هـ.

عبد الحميد: صبحي عبد الحميد

- نظرات في الحرب الحديثة، بيروت، المكتبة العصرية الحديثة، ١٩٧٩م.

العراقي:زين الدين عبد الرحيم بن الحسين (ت٨٠٦هـ)

- نظم الدرر السنية الزكية، بيروت، ط١، دار المنهاج ، ١٤٢٦هـ.

عرجون: محمد الصادق

- محمد رسول الله ﷺ، دمشق، ط٢، دار القلم، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م.

ابن عساكر:أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله (ت٥٧١هـ)

- تاريخ مدينة دمشق، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي، بيروت، دار الفكر، ١٤١٥هـ ١٩٩٥م.

علي: جواد علي.

- المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، بيروت، ط٤، دار الساقي، ١٤٢٢هـ ٢٠٠١م.

العمري:أكرم ضياء العمري

- السيرة النبوية الصحيحة، المدينة المنورة، مكتبة العلوم والحكم، د.ت.

العودة: سليمان العودة

- السيرة النبوية في الصحيحين وعند ابن إسحاق، جامعة الإمام محمد بن سعود، ط١، عمادة البحث العلمي، ١٤١٤هـ، ١٩٩٣م.

عياض:أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي (ت٥٤٤هـ):

- الشفا بتعريف حقوق المصطفى، بيروت، دار الفكر الطباعة والنشر والتوزيع، ١٤٠٩هـ -١٩٨٨م.

الغزالي:محمد

- فقه السيرة، القاهرة، ط١، دار الشهاب للطباعة والنشر، ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م.

الغضبان: منير محمد الغضبان

- المنهج الحركي في السيرة النبوية، الأردن، ط٢، مكتبة المنار، ١٤١١هـ-١٩٩٠م.

الفلكي: محمود باشا الفلكي

- نتائج الأفهام في تقويم العرب قبل الاسلام، القاهرة، مطبعة بولاق، ١٣٠٥هـ.

القرطبي: محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي (ت٦٧١هـ)

- الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: هشام سمير البخاري، الرياض، دار عالم الكتب، ١٤٢٣هـ ٢٠٠٣م.

قلعه جي، قنيبي: محمد رواس قلعه جي، حامد قنيبي

- معجم لغة الفقهاء، بيروت ط٢، دار النفائس، ١٤٠٨ه - ١٩٨٨م.

ابن قيم: شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب (ت٧٥١هـ)

- زاد المعاد في هدي خير العباد، بيروت، ط٢٧، مؤسسة الرسالة، ١٤١٥هـ-١٩٩٤م.

ابن كثير: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير(ت٧٧٤هـ)

- البداية والنهاية، تحقيق: علي شيري، بيروت، ط١، دار إحياء التراث العربي، ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م.

- تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، ط٢، دار طيبة للنشر والتوزيع، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م.

ابن الكلبي: هشام بن محمد بن السائب الكلبي

- كتاب الأصنام، تحقيق: أحمد زكي، القاهرة، دار الكتب المصرية، ١٩٩٥م.

كمبي: الأب جان

- الكنيسة، ترجمة: الأب أيوب زكي الفرنسسكاني وآخرين، بيروت، دار المشرق، د.ت.

لوبون:جوستاف.

- حضارة العرب، ترجمة: عادل زعيتر، القاهرة، مطبعة عيسى البابي الحلبي، د.ت.

أبو ليلة، محمد

- محمد بين الحقيقة والافتراء في الرد على المستشرق ماكسيم ردوينسون، القاهرة، دار النشر للجامعات، ١٩٩٩م.

محمد: إبراهيم علي

- السيرة النبوية قراءة لجوانب الحذر والحماية، قطر (كتاب الأمة/عدد٥٤)، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، ١٤١٧هـ.

مسلم: أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري (ت٢٦١هـ):

- المسند الصحيح المختصر من السنن بنقل العدل عن العدل عن رسول الله ﷺ، بيروت، دار الجيل، د.ت.

المغيري:بدر هايف المغيري

- التنظيمات المالية في العصر النبوي، جامعة القصيم، كرسي السيرة النبوية، ١٤٣٣هـ-٢٠١٢م.

ابن المقفع: ساويرس

- تاريخ البطاركة، تحقيق: الأنبا صموئيل، القاهرة، مطبعة النعام، د.ت.

المقريزي: أحمد بن علي بن عبد القادر(ت ٨٤٥هـ)

- النقود القديمة الإسلامية (ضمن مجموعة رسائل)، القاهرة، ط١، دار الحديث،١٤١٩هـ.

المنصور فوري: محمد سليمان المنصور فوري.

- رحمة للعالمين، ترجمة: سمير عبد الحليم، الرياض، ط١، دار السلام، د.ت

ابن منظور: محمد بن مكرم (ت٧١١هـ)

- لسان العرب، بيروت، دار صادر، د.ت.

مؤنس: حسين

- أطلس تاريخ الإسلام، القاهرة، ط١، الزهراء للإعلام العربي، ١٤٠٧هـ- ١٩٩٨م.

الميداني: أبي الفضل أحمد بن محمد النيسابوري (ت٥١٨)

- مجمع الأمثال، تحقيق: محمد محيى الدين عبد الحميد، مطبعة السنة المحمدية، ١٣٧٤هـ-١٩٥٥م.

الندوي: أبو الحسن علي الحسن

- السيرة النبوية، جدة، ط١٠، دار الشروق، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م.

- ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، المنصورة، مكتبة دار الإيمان، د.ت.

النسائي: أحمد بن شعيب النسائي(ت٣٠٣هـ)

- السنن الكبرى، تحقيق: عبد الغفار البنداري، سيد كسروي، بيروت، ط١؛ دار الكتب العلمية، ١٤١١هـ-١٩٩١م .

ابن النفيس: علاء الدين علي بن أبي الحرم القَرشي (ت٦٨٧هـ)

- الرسالة الكاملية في السيرة النبوية، تحقيق: عبد المنعم محمد عمر، القاهرة، ط٣، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ١٤١٣ه- ١٩٩٣م.

نور:ياسر أحمد نور

- أثر العصبية القبلية في حركة السيرة النبوية، حولية التاريخ الإسلامي والوسيط، جامعة عين شمس، ج ٨، ٢٠١٣-٢٠١٤.

- مصادر السيرة النبوية بين المحدثين والمؤرخين، المدينة المنورة، ط١، جائزة نايف العالمية للسنة النبوية والدراسات الإسلامية المعاصرة، ٢٠٠٧هـ.

- ورقة بن نوفل بين المسيحية والإسلام، حولية التاريخ الإسلامي والوسيط، جامعة عين شمس، المجلد الخامس، ٢٠٠٦-٢٠٠٧م.

النووي: يحيى بن شرف بن مري النووي (ت٦٧٦هـ)

- شرح النووي على صحيح مسلم، بيروت، ط٢، دار إحياء التراث العربي، ١٣٩٢هـ.

ابن هشام: عبد الملك بن هشام الحميري (ت٢١٨هـ).
- السيرة النبوية، تحقيق:مصطفى السقا، إبراهيم الإبياري، عبد الحفيظ شلبي، القاهرة، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، د.ت.
الهاجري: الشريف حمدان
- الأسلوب النبوي في الدعوة، القاهرة، دار الهد للطباعة، ١٤٠٧هـ.
الهيثمي: نور الدين علي بن أبي بكر (ت٨٠٧هـ)
- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، بيروت، دار الفكر،١٤١٢هـ.
واط:منتجمري
- محمد في مكة، ترجمة: عبد الرحمن الشيخ، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٢م.

فهرس الكتاب

إهداء ٤

المقدمة ٥

١-مصادر السيرة النبوية.. ٧

٢-إطلالة على أحوال العالم القديم وجزيرة العرب قبل بعثة النبي ﷺ ١٤

٣-حكمة اختيار الجزيرة العربية لتكون مهدًا للإسلام ٢٥

٤-النبي ﷺ من الميلاد إلى المبعث ٢٦

٥- نزول الوحي على النبي ﷺ في غار حراء.. ٤٩

٦-مرحلة الدعوة السرية ٥٣

٧- الأمر من الله بإعلان الدعوة ٦٠

٨- وسائل النبي ﷺ لإعانة الصحابة على تحمل العذاب ٦٧

٩- الهجرة إلى الحبشة ٧٠

١٠- إسلام حمزة بن عبد المطلب ٧٦

١١- حادث المقاطعة ٧٨

١٢- عام الحزن.. ٨٠

١٣- رحلة الرسول ﷺ إلى الطائف ٨٢

١٤- النبي ﷺ يبحث عن مجير لدخول مكة..................................... ٨٥

١٥-رحلة الإسراء والمعراج ٨٧

١٦-الرسول ﷺ يواصل البحث عن عصبية لحماية الدعوة خارج مكة.......... ٩٠

١٧-اتصال النبيﷺ ببعض أهل يثرب قبل بيعتا العقبة............................ ٩٤

١٨-جريان سنة التغيير للتمكين لدعوة الإسلام: ٩٦

١٩- الهجرة إلى المدينة.. ١٠٤

ثبت المصادر والمراجع ١١٣

فهرس الكتاب ١٢٣